البنا

مسؤولية الانحلال

301.155
B21mA
NO 3
JAFFET LIB.
- 3 JAN 2007
Circulation Dept. 5

301.155
B21mA
c.1

مسئولية الانحلال

بين الشعوب والقادة

كما يوضحها القرآن الكريم

تأليف

جمال البنا

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٩٥٢

إهداء

إلى الشعوب

الطامحة فى حقول الشقاء . وزوايا النسيان

حشو المدافع . . .

ودافعة الضرائب . . .

ومطية القادة . . .

وفريسة الأمراض والأوبئة . . .

تحركى أينها الملايين . . .

مقدمة

هل هناك ما هو أشد أخذاً بالألباب واستثارة للحواس من أطلال المدنيات . وركام الحضارات . وآثار الأقدمين . من بئر معطلة أو قصر مشيد . . . أو طلل دارس . . . ؟

لقد مست هذه المناظر أفئدة الشعراء الأقدمين فوقفوا بها « وقوف بخيل ضاع فى الترب خاتمه . . . » كما قال المتنبي . وافتقدوا الحبيب الهاجر . والذكريات العذبة الماضية التى تصفق بها الرياح . وتسخر منها الأنواء . وتعمل فيها عوامل التعرية يدها القاسية . . .

ووقف بها الشعراء المعاصرون يصوبون البصر . ويكدون الذهن . ويقولون كما قال شوقى بك :

حوادث قديمة الميلاد
فضن عن الملوك والقواد
وصرن وحى شاعر وشاد
وفتنة اليراع والمداد
يعطفن كل طيب الفواد
تهزه فجيعة الأمجاد
وروعة المقادر العوادى

ورأى فيها الحافرون على التاريخ والباحثون فى الأعماق صفحات من تاريخ الأمم والشعوب تنطق بلسان مبين فى صمته ، عن الحياة الماضية والمدنية الآفلة . وتوضح أسباب انحلالها من ترف يغرق الخاصة ويحيف على العامة .

ويخمل القوى ، ويبلد الحواس ، أو حرب شعواء تأتى على الأخضر واليابس وتودى بالشباب ، وتحيل العمائر والمدن والقرى الساكنة ، والحياة الآمنة إلى ركام وخرائب ينعق فيها البوم وتشيع بين جنباتها الفوضى والاضطراب ، أو طغيان من القادة واستبداد بالحكم يجر وراءه الملايين الغافلة السادرة إلى هاوية الخراب ، ويسوقها سوق النعاج إلى مذبحة الشعوب .

وجاء القرآن العظيم فأزرى بكل ما عداه . وفاق كل ما سبقه . واتخذ من الأمم السابقة . والقرون الموغلة فى القدم . عظة وعبرة ضرب بها المثل للأجيال اللاحقة ، والأزمان الآتية . وجمع بين استثارة العواطف والقلوب ، وبين إعمال الفكر ، وتدبر العقل . وكرر هذه المعانى حتى لا تكاد تخلو منه سورة وحتى يتكرر فى السورة الواحدة عدة مرات . وأرجع عوامل الانحلال إلى أسباب معلومة ، تتفق فى كل الأمم والشعوب وتتشابه على كر السنين ، ومر القرون .

ومن هنا تصبح هذه المعانى عظيمة الفائدة فى موضوع ، هو فى حد ذاته عظيم وهام ، ألا وهو تبيان حالة الانحلال الواقعة بالمسلمين . ومعرفة المسئولين عنها . ومدى مسئوليتهم .

وناحية أخرى هى أن هـذا الموضوع . بما يتطلبه من تحديد للعلاقة بين الفرد والدولة . الشعب والقيادة . وإيضاح لعوامل الانحلال . التى تتسلل إلى الأمم فتنخر فيها . وذكر لمدى مسئولية كل من القادة والشعوب ، هذه كلها من أعقد المواضيع ، وهى تزيد تعقداً وتشابكا ، بقدر تعقد الحضارة وزيادة الحرية وثقل أعباء القادة والشعوب .

وكل جهد يتناول هـذا الموضوع أو يحدد ناحيـة منه يساعدنا مساعدة

فعالة ، على تفهم الأوضاع الاجتماعيـة والمسئوليات الوظيفية . أعنى تلك التى تتعلق بالوظيفة . ولا سيما ونحن نرى أن العلم بهذه المسئوليات أو تقديرها غير متحقق حتى لأصحابها أنفسهم ، الذين كان يجب أن يلموا بها قبل ممارسة وظائفهم العامة . وما أكثر ما نسمع من الناس عن فلان من القادة أنه رجل طيب فى شخصه . كريم فى خلقه . ولـكنه فاشل كقائد . أو أن له حاشية تفسد عليه أمره . ويذكرون ذلك كتبرير للأخطاء أو إخلاء للمسئولية ، ولو علموا أن العبرة فى القيادة ليست بالطيبة أو الـكرم أو الصفات الشخصية . وإنما هى فيما تتطلبه القيادة وتوجبه لأدركوا — ولأدرك القادة أنفسهم — أن المسئولية واقعة عليهم مهما حاولوا التملص . ولتكلفوا أن يصلحوا من أخطائهم ويقوموا من شئونهم . ولـكان من المحتمل أن يصلح أمثال « عرابى » و « النحاس » كثيراً مما شاب حياتهم من الأخطاء . وأن يرفض السلطان « حسين كامل » ولعله كان أطيب أبناء الأسرة العلوية أن يكون الضحية المتطوعة لوضع مصر تحت حماية الانجليز . . .

ومن عجب أن هـذا الموضوع الهام لم يظفر من الـكتاب والمفسرين وعلماء الدين بكثير من العناية . فقد عُنى المفسرون والدارسون لـكتاب الله بتفسير كل سورة على حدة . واهتموا أشد الاهتمام باللغة والأحكام وأسباب النزول الخ . . . دون أن يخطر لهم العناية بوحدة الموضوع أو استخلاص المعانى المتفقة من السور المتعددة . والنظر إلى القرآن كوحدة تكمل سوره بعضها بعضاً . واستخراج القواعد الأساسية منها .

وأظن أن فضيلة الإمام الشهيد حسن البنا هو أول من لفت الأذهان إلى ذلك فى هـذا العصر . فقد قال فى العدد الأول من مجلة الشهاب فى شرح منهجه فى دراسة القرآن :

« .. وذلك بأن أتناول المقاصد العامة فى القرآن الكريم بحسب مايلهمنى الله إياه من فهم وتدبر وفقه . وذلك ابتداء من فاتحة الكتاب الكريم إلى خاتمته إن شاء الله فأكون بذلك قد جمعت بين الحرص على الترتيب والإفادة من حيث وحدة الموضوع بقدر الإمكان . وإذا أعان الله على هذا العمل وباركه فسيكون عنوانه إن شاء الله . مقاصد القرآن الكريم » فلئن كان الجمع بين الترتيب وبين وحدة الموضوع جهد لا يستطيع القيام به إلا من رزق موهبة هذا الإمام العظيم فإن فى الكتابات عن وحدة الموضوع مقنعاً كافياً للكتاب والباحثين .

* * *

وأخيراً فلعل هذه الرسالة أن تكون نفثة مكلوم ، فاض بها الصدر . وأعلنها القلم . بعد أن جاوز الانحلال فى هذه البلاد البائسة كل تقدير . وأريد لها أن تستنهض خامل الهمم وغافل الضمائر . وأن تضع تحت أنظار الشعب الحقائق المجردة فى هذا الموضوع التى يمكن تلخيصها فى ثلاث قضايا تناولتها الرسالة بإسهاب ، ومن عدة زوايا : القضية الأولى — أن القيادة مسؤولية جسيمة وتبعة ثقيلة إذا أسىء فهمها فاعتبرت وسيلة ذاتية بدلا من تكون — كما هو المفروض — وظيفة عامة موضوعها الشعب . جرت على الملايين الآلام والمصائب . وكانت عاملا أساسياً فى انحلال الأمم والشعوب . ومن المؤسف أن القادة — ممثلين فى الملوك والأمراء ورجال الدين ورجال المال — أساءوا دائماً فهمها ، وجعلوها — إلا ما ندر — طوعاً لأهوائهم ونزواتهم . والثانية — أن احتمال إصلاح القادة بعد تعودهم الطغيان واستمرائهم الاستبداد احتمال ضعيف ، حتى لو وجدت دواعيه . لأنه يخالف طبيعة الاستبداد وفطرة الطغاة . فإذا دلت الأحداث والتجارب على إصرارهم

— كما هو المنتظر — كان كل أمل فى هديهم سواء السبيل أو إلزامهم جادة العدالة تبذيراً للجهود ، وتضليلا للكفاح عن وجهته السليمة ووسيلته المثمرة ، وتعللا بكاذب الآمال ، أو هو غفلة العقل السقيم عند ما يعدم التمييز . أو خداع الطبع اللئيم إذا هرب من وخز الشعور فابتغى الأسباب الملفقة وتعلق بالاحتمالات الواهية . والثالثة — أن الشعب يكون ظالماً لنفسه بالسكوت ، مسؤولا عن الانحلال بالرضوخ ، آثماً فى حقوقه — وإخوانه — بالتفريط قدر ظلم القادة له ومسؤوليتهم عن الانحلال بالظلم والإسراف ، والإفراط والطغيان . وأن الإسلام لا يقبل منه دنية ، ولا يرضى له الضيم . ولا يضعه موضع السائمة تقاد إلى الذبح وتساس بالقسر والهوان .

وأغلب الظن إن معظم هذه القضايا يخالج النفوس ويراود الأذهان ، ويتردد بين ضمائر الناس لأن سوء الحالة ، وضغط الحاجة . واختلال الأوضاع قد فعل فى الناس أكثر مما تفعل الكتب والأحاديث . ودلهم على ما ينتهى إليه الدرس والمذاكرة ، شأنه فى ذلك شأن التجربة . ولكن الناس مع ذلك يفتقدون الأساس العلمى والدينى لثورتهم . والسناد الذى يستندون عليه فى قيامهم بمسئوليتهم وواجبهم ، فإذا قدمت هذه الرسالة الأساس المطلوب وانتظمت الحماسات المبددة ، والمشاعر المشتتة . وركزتها نحو هدف واحد ، فإنها تكون قد أدت الغرض المأمول وآتت الثمرة المرجوة . ومن أجل ذلك أهديناها إلى الملايين من أفراد الشعوب المجهولين فى القرى والكفور والحوارى والأزقة صائحين « تحركى أيتها الملايين » ؟

المؤلف

الباب الأول

عنصر المسئولية في القرآن الكريم

« .. الرسالات السماوية والفطرة الخيرة عن يمينه . والشيطان وإغراء الشر عن يساره . وما يفعل من حسنة تكتب له وتضاعف وما يفعل من سيئة تكتب له دون زيادة . ومسئوليته من خير وشر واقعة عليه وحده . وباب التوبة مفتوح له مابقيت الحياة . وهو غير مسئول عن أعمال الغير . غير مستعتب إذا اعتذر بلاغواء . مسامح إذا كانت السيئة عن سهو أو نسيان أو خطأ غير متعمد . أو بارغام لا طاقة له بدفعه . وفي جميع الحالات يكون العدل هو الجزاء الذي يوفى يوم القيامة مع إيثار ملحوظ للرحمة والسماحة .

(ص ٢٩)

- ١ -

تصوير المسئولية في القرآن

المسئولية في الأديان جميعاً هي أولى النتائج التي تترتب على الحقيقة الأساسية فيها . وهي الإيمان بوجود الله . والتي يترتب عليها — بالتالي — كل ما يأتي بعد ذلك من إيجاب للحساب لمكافئة المحسن ومعاقبة المسيء . وخلق للجنة والنار كأداتين لتحقيق ذلك ، وإرسال الرسل مبشرين ومنذرين « لكي لا يكون للناس حجة على الله بعد الرسل » وحتى لا يقولوا « ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك . . ونكون من المؤمنين » .

فالشعور بالمسئولية هو الإلزام المترتب على الإيمان بوجود الله عز وجل وهو الضوء الذي يمكننا أن نفهم به رسالة الدين ونفسر به سبب الامتثال والطاعة . وهو الحبل المتين الذي يربط الأرض بالسماء وتتنزل عليه الأوامر والنواهي الآلهية . فتسكن من القلوب حباتها . ومن النفوس أعماقها . وتسلم لها العقول . وتسكن اليها الحواس . . إذ عند ما تتيقن النفوس هذا المعنى وتؤمن به تصغر أمامها الدنيا كلها وتتجلى ضآلتها — والانسان — جنب القدرة الإلهية ويتضح لها أن الامتثال هو ابده الواجبات . لذلك يكون هوى الانسان تبعاً لإيمانه . وتخضع تصرفاته جميعاً للدين . وتكون المسئولية حارساً أميناً على الأفعال . ومعنى ماثلا في الأذهان ولا سيما عند ما يخلو الانسان إلى نفسه . وتنعدم الرقابة . وتقوى المغريات ويشتد نزع الشيطان ووسوسته .

ولا يضعف من أهمية هذه المسئولية أن الدار الآخرة هي ساحة الحكم وأن عالم ما بعد الموت هو حين الفصل لأن مناط الحكم هو التصرفات

الدنيوية ولأن الدنيا مزرعة الآخرة والوسيلة اليها . على أن الإسلام لم يقصر المسئولية على الحياة الآخرة كبعض الأديان . كما سنرى .

***

وقد صور القرآن المسئولية فأحسن تصويرها وأبرزها وبينها بما لا يدع بياناً لكاتب أو مقالا لقائل . وأحاط بأسبابها ونواحيها وألم بجملتها وتفصيلها وراعى فى كل ذلك مقتضيات تدق على الأذهان وتخفى على العقول ويدرك منها البحث كلما تقدم طرفاً بعد طرف ، وأثراً بعد أثر ، فلا يملك الانسان إلا أن يهتف من أعماقه « تبارك الله أحسن الخالقين » .

أجل . إن المسئولية فى القرآن صفحة رائعة يحق لعلماء القانون والاجتماع والنفس أن يعكفوا عليها ، ويفخروا بها ، ويقبسوا منها ما يضىء لهم مسالك بحثهم المتشعبة وتجنبهم مزالقه الشائكة ويسمو بها فوق أهواء النفوس وضعف البشر . وقصور الانسان .

قرر القرآن المبادىء الأساسية فى المسئولية ووضح كل مبدأ فى عدة آيات وصوره من نواح مختلفة وكرر ذلك حتى لا تلبس فى الأذهان ، أو تخطئه العقول ، أو يفتات عليه أحد بتأويل مغرض أو يحتج إنسان بغموض تعالى عنه القرآن العظيم .

— ٢ —

وجود المسئولية وتوكيدها

قرر القرآن بادىء بدء وجود المسئولية بشكل قاطع لا ريب فيه فقال « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين » « أفحسبتم إنما خلقناكم

عبثاً ، وانكم إلينا لا ترجعون » « لا يسأل عما يفعل . وهم يسألون » « كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون » « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها . وأشفقن منها . وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولا » « وقفوهم إنهم مسئولون » « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين ظلموا فويل للذين كفروا من النار » « أيحسب الانسان أن يترك سدى ؟ » « وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى وان إلى ربك المنتهى » « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون » « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » « اليوم تجزى كل نفس ما كسبت . لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب » « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » « كل نفس بما كسبت رهينة » « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » « فوربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون » « وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون » « وكل شىء أحصيناه كتاباً » « نحن نحيي ونميت ونكتب ما قدموا . وآثارهم وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين » « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » .

وعاب القرآن على الذين يعيشون هملا . ويحيون سدى . ويأتون أعمالهم

عبثاً . ويظنون إنما هى الحياة الدنيا « إن الذين لا يرجون لقاءنا . ورضوا بالحياة الدنيا وأطمأنوا إليها . والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » « إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا . وما نحن بمبعوثين » « إن هؤلاء ليقولون إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين » « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها . وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون » « أنهم كانوا لا يرجون حساباً » « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة . قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب والشهادة لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ».

— ٣ —

مدى شمول المسئولية

وقرر القرآن أن هذه المسئولية تشمل الأعمال . . . والأقوال وما توسوس به النفوس . كبيرها وصغيرها . جليلها وحقيرها . « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » « وكل صغير وكبير مستطر » . وهو لكى يبرز فكرة الضآلة والصغر يضرب المثل بكلمة « ذرة » ، « أو مثقال ذرة » أو مثقال حبة من خردل « ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، وإنما يكون هذا المثقال الضئيل ، فى صخرة صماء أو فى أثير السماء ، أو فى طبقات الأرض المتكاثفة يأت به الله ، « يابنى أنها إن تكن مثقال حبة

من خردل ، فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير » « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » « وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين » .

فالإنسان مسئوول عن ألفاظه وأقواله « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » « أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى . ورسلنا لديهم يكتبون » « ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض . وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . إن الله بكل شىء عليم » .

وهو مسئوول عن الأيمان ، وما يبذل من وعد أو قسم « لا يؤاخذكم الله باللغو فى إيمانكم ولكن يؤآخذكم بما عقدتم الإيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة إيمانكم إذا حلفتم . . . » .

وهو مسئوول عن السمع ، والبصر « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئوولا » « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى » « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا . ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه . وكان أمره فرطا » .

والأموال والأولاد والأزواج فتنة ومسئوولية . « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم . وإن تعفوا وتصفحوا فإن الله غفور رحيم . إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم » « يا أيها الذين آمنوا قو أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله . ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » .

فالصغر والخفاء والتفاهة وغير ذلك من صفات الضآلة وبواعث التهوين لا تحول دون السؤال والحساب إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً . فإذا كان فى ذلك معنى من معانى التحكم الشامل والرقابة التى قد لا تفلت شاردة ولا واردة فليس فى ذلك ما يبعث على الشكوى أو يخالف جادة العدل ، بل والحرية أيضاً لعدة أسباب . منها أن الله عز وجل إذا كان يعاقب على الصغيرة فإنه يكافىء عليها أيضاً . . وهو يجزل العطاء ويسبغ الرحمة . ومنها أن مسؤولية ما توسوس به النفوس . . وما تكنه القلوب أقرب إلى التهذيب وكمال الخلق والنفس منها إلى العقاب والجزاء والقصاص لذلك جعل مردها إلى الله وليس إلى الناس فلا يحاسب إنسان أمام أمير . . أو يقدم إلى المحاكمة على نية دون تنفيذ أو فكرة عارضة . . وفى هذا الجمع بين تهذيب النفس وبين الحيلولة دون استغلال السلطات استغلالا مسرفاً ، ومنها أن الإنسان إذا استهان بالصغائر تراكمت عليه حتى تصير سدوداً ، وقويت حتى تصبح قيوداً ، ويؤتى منها دون أن يتخذ عدة أو يجهز دفاعاً ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع « إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم . ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم . . » وكل خبير بالنفس

الإنسانية يعلم أنها طلعة ، وأنها تستزيد من فعل ما يباح لها ، وتضاعف ما تلمس فيه لذة . . فالاستهانة بالصغائر هى باب الشر الأعظم يتردى بسببها من الناس أكثر مما يتردى بسبب كبائر الموبقات . .

ومما يتعلق بشمول المسؤولية ، أن القرآن الكريم قد وضح ، فى آيات لا عداد لها — أن الكون كله من أصغر ذرة حتى أكبر نجم ، ومن الهوام حتى الإنسان ، والملائكة منظم تنظيما وثيقاً . وإن كل شىء منها له نصيبه المعلوم وعمله المخصوص به ، والمناط إليه ، والذى لا يجوز له أن يهمل فيه أو يتخلف عنه « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار » . « وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » . « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار . وكل فى فلك يسبحون » . « وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ». « ويسبح الرعد بحمده . والملائكة من خيفته » . « ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار . ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير » . « تسبح له السموات السبع والأرضين ومن فيهن . وإن من شىء إلا يسبح بحمده . ولكن لا يفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً » . « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم . ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون » . « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » . « يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً » . « والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره .

ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . « وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » .

فهنا مسؤولية وظيفية ، اجتماعية بالنسبة للانسان وكونية بالنسبة لغيره ، وهى تقوم على أساس أداء الوظيفة ، الأداء الواجب . ويسأل الفرد الإنسانى فيها لا بصفته الشخصية أو الخاصة . وإنما بصفته الوظيفية فهو مسؤول كأب ، وزوج ، ومسؤول عن دوره فى العمل والقادة مسؤولون عن شعوبهم ، والشعوب مسؤولة عن قادتهم ، والمؤاخذة فى كل هـذه الحالات تقوم على الأساس الوظيفى للأفراد ، وما مسئولية القادة والشعوب — التى تدور عليها هذه الرسالة — إلا باباً من هذا القسم من المسؤولية .

— ٤ —

المسؤولية واقعة على المسؤول وحده

ومن المبادىء الأساسية التى يقررها القرآن فى المسؤولية ويبذ بها غيره من الأديان والتشريعات قصر المسئولية على المسؤول وحده . وعدم إشراك آله فيما اقترفت يداه . ولعلم الله عز وجل بما فطر عليه الناس ، من سهولة الانزلاق فى مزالق الطغيان ، فإنه كرر هذا المعنى ، وأبرزه كاملا فى كثير من الآيات « تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت . ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانو يعملون » . « قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون » « قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم » . « ولا تزر وازرة وزر أخرى وأن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء . ولو كان ذا قربى . . » . « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه . ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ».

«.. ألا تزر وازرة وزر أخرى» . «ولا تكسب كل نفس إلا عليها . ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » . « قل لا تسئلون عما أجرمنا . ولا نسئل عما تعملون » .

وإذا قارنا التشريع القرآنى بالتشريعات الأخرى وضحت لنا عدالته وانصافه . فهذه التشريعات كانت تشرك فى المسؤولية أقرباء المذنب . «فالقانون الصينى القديم يعاقب المجرم فى حالة الخيانة الوطنية . . وجميع أقربائه من الدرجة الأولى « ويعنى بهم القانون الآباء والأمهات والأجداد والجدات والأولاد وأولاد الأولاد والأعمام وأولاد الأعمام والعمات وأولاد العمات » سواء فى ذلك ذكورهم وإناثهم كبارهم وصغيرهم » (حتى الرضيع منهم وحديث العهد بالولادة) الأصحاء منهم وذو العاهات الطبيعية أو الطارئة . وسواء أكانوا يعيشون مع المجرم فى منزل واحد أم كانوا يعيشون فى عدة منازل ويعاقب كذلك من أقربائه الآخرين (أى غير أقرباء الطبقة الأولى السابق ذكرهم) الذكور البالغون ستين عاماً فصاعداً إذا كانوا يعيشون معه فى منزل واحد وقت ارتكاب الجريمة . مهما كانت صلة قرابتهم به بعيدة وسواء فى ذلك قرابة النسب ، وقرابة المصاهرة ! فأما المجرم نفسه فيقطع جسمه إرباً إرباً وتصادر أملاكه لمصلحة الدولة . أما أقرباؤه من الدرجة الأولى فيحكم بالقتل على ذكورهم البالغين ستين سنة فصاعداً . وبالرق على جميع إناثهم وعلى ذكورهم الذين لم يبلغوا بعد سن الستين . وتوقع كذلك عقوبة الخصى « زيادة على عقوبة الرق » على صغار ذكورهم الذين بلغوا السادسة فإن كانوا لم يبلغوا السادسة سجنوا حتى يبلغوا سن الحادية عشرة ثم توقع عليهم هذه العقوبة !

« والشريعة اليونانية القديمة تقدر كذلك العقوبات الجمعية فى جريمتين

الخيانة العظمى وانتهاك حرمة الأشياء المقدسة فتقضى فى هاتين الحالتين بالاعدام على المجرم نفسه وعلى جميع أفراد أسرته « وهم عصبته أى أقرباؤه من ناحية الذكور » لا فرق فى ذلك بين صغارهم وكبارهم ذكورهم وإناثهم ، أصحائهم ومرضاهم . عقلائهم ومجانينهم . وتقضى بعد تنفيذ حكم الاعدام على جثثهم نفسها بالحرمان من الدفن والطقوس الدينية وبنبذها فى خارج حدود البلاد . ولم تكن هذه المسؤولية مقصورة على الأحياء من أقرباء المجرم ، بل كانت تشمل كذلك الأموات منهم فكانت تنبش قبورهم ويقذف برفاتهم فى خارج الحدود . وكانت تمتد فوق هذا وذاك إلى جميع ما تملكه الأسرة من حيوان وأموال ومنازل ومتاع فتباد هذه الممتلكات أو تحرق أو تدمر أو تصادر .

« وأما الشرائع التى كان يسير عليها الرومان فى عصورهم المسيحية فقد أقرت هذه المسؤولية [المسؤولية الجمعية] فى مظاهرها التى تنال الأنفس والحريات . وفى مظاهرها التى تنال الأموال . وإليك مثالا القانون الذى أصدره سنة ٣٩٧ بعد الميـــلاد الأمبراطور أركاديوس أمبراطور الدولة الرومانية الشرقية [٣٩٥ — ٤٠٨] بصدد جريمة الخيانة الوطنية واحتفظ به الأمبراطور جستنيان نفسه [٥٢٧ — ٥٦٥] فقد قرر هذا القانون « أن العدالة المطلقة تقضى أن يصيب أبناء المقترف الخيانة الوطنية العقاب نفسه الذى يصيب والدهم ! ولـكن الأمبراطور — لما له من سلطة مطلقة — يرى الابقاء على حياتهم على أن يحرموا الميراث والتملك ويحال بينهم بين مواطن الشرف ومظانه ولا يسمح لهم بالاشتراك فى الطقوس الدينية . وهكذا يعيشون عيشة المنبوذين فى فقر مدقع ، وبؤس مقيم » .

« وقد أقر كثير من الأمم الأوروبية عدة مظاهر من المسئولية الجمعية

طوال العصور الوسطى وفى أثناء مرحلة كبيرة من العصور الحديثة فشرائع الانجليز السكسونية السابقة لعهد الكانوت كانت تبيح أن يباع الأولاد بيع الأرقاء لاستيفاء ما يحكم به على آبائهم من غرامات مالية فى بعض الجرائم . وشرائعهم اللاحقة لهذا العهد كانت تأخذ الأولاد ببعض جرائم آبائهم فكان أولاد المحكوم عليه بالحرمان من حماية القانون يجردون أيضاً من هذه الحماية . وقد أدخل ادوارد الثالث ملك الانجليز السكسون [١٠٤٢ — ١٠٦٦] تعديلا يسيراً على هذا القانون بدون أن يمس جوهره فقرر أن هذا الحكم لا يسرى إلا على من يولد للمجرم بعد توقيع هذه العقوبة عليه . . . بينما يعفى منه من ولد له قبل ذلك » (١).

وقد صور العهد القديم نوعاً خشناً بدائياً من المسؤولية الجمعية . . عند ما افترى المحرفون له على الله عز وجل الكذب فوصفوا إله موسى بأنه إله غيور يفتقد ذنوب الآباء فى الجيل الثالث من الأبناء !

لا جرم أن هذه الصور من العدوان والظلم وأخذ البرىء بجريرة المذنب . . وإجراء ذلك باسم العدالة [المطلقة ! !] ليصور لنا كيف أن القرآن كان ظهيراً للشعوب على الحاكمين ونصيراً للمظلومين على الطاغين ومقيماً لشرعة العدالة الحقة . . العدالة الموضوعية المطلقة . . لا العدالة المغرضة ولا العدالة الضيقة المزيفة . ولا العدالة من وجهة نظر جستنيان وأدوار . . وغيرهما من الحكام . . ولا العدالة المشوبة بتقاليد الوضع الاجتماعى المتأثرة بوحى التمايز الطبقى . . وهذا التجرد من التفرقة بين الناس . . والتسامى فوق الأغراض هو فى نظرنا ألمع معانى صفة « السماوية » التى للأديان وأبرز عوامل أفضليتها على الشرائع الوضعية .

---

(١) صفحات ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ المسؤولية والجزاء للدكتور على عبد الواحد وافى بتصرف .

تكافؤ المسئولية والجزاء

ومما يتعلق بهذه الناحية من المسئولية بسبب وثيق أن القرآن ، ليس فحسب أوقع المسئولية على المسئول وحده وإنما حدد أيضاً ، الجزاء بقدر المسئولية مع ميل ملحوظ إلى مضاعفة الحسنة . . وإيثار الرحمة . وتفضيل العفو والسماحة « من جاء بالحسنة فله عشرة أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، وهم لا يظلمون » « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » « من جاء بالحسنة فله خير منها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون » « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين » .

وجعل العدل . . والعدل وحده الروح التى تصدر عنه أحكام الجزاء . وحذر أن يؤثر على هذا العدل أى مؤثر ولو كان الشنآن . أو الكفر أو الحالة الاجتماعية من فقر أو غنى أو التحيز للنفس أو ذوى القربى أو غير ذلك من المؤثرات والموغرات والمغريات فقال : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى

« ولا تبخسوا الناس أشياءهم » وهذه الآيات مثال رائع لطلب العدالة الموضوعية . ودليل ناصع على أن القرآن لم ينظر إلى الحياة من وجهة النظر العقدية الضيقة ، وان عدالته تسع البشرية أجمع ، عربها وعجمها ، فقيرها وغنيها ، مسلمها وكافرها .

ولكى يقرب القرآن فكرة العدالة إلى أذهان الناس نراه — فى كثير من السور — يمثلها بالميزان ذلك الميزان الذى جعله من أركان رسالة الأنبياء « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات . وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » « والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » وفى هذا الميزان توضع المسؤولية فى كفة ، والجزاء فى الثانية « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون » « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » .

— ٦ —

الاغراء لا يعد مبرراً للاعفاء من المسؤولية

وأشار القرآن فى كثير من السور إلى هذه الحالات التى يغرى فيها الحليف حليفه ، ويفسد القرين قرينه ويهون الأشرار من الناس على البرءاء والغافلين تحمل الشر ، واقتراف المنكرات . فأوجب عقابهم جزاء غشهم ، وقاء خداعهم « قال قائل منهم إنى كان لى قرين يقول أءنك لمن المصدقين .

أ إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أءنا لمدينون . قال هل أنتم مطلعون . فاطلع فرآه فى سواء الجحيم . قال تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين » « وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والأنس إنهم كانوا خاسرين » « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم . ألا ساء ما يزرون » .

ولكنه لا يعد إغراءهم موجباً لإعفاء المستجيبين له من المسؤولية لأن القرآن يؤمن بأهلية الإنسان لتحمل المسؤولية وقدرته الطبيعية على أن يميز بمحض فطرته أولا — ثم برسالة الأنبياء ثانياً — بين الخير والشر ، الحسن والقبيح ، « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » « ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا . لقد أضلنى عن عن الذكر بعد إذ جاءنى . وكان الشيطان للانسان خذولا » « قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد » « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » « فأغويناكم إنا كنا غاوين : فإنهم يؤمئذ فى العذاب مشتركون » . « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء وإنهم لكاذبون . وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون » .

وعلى أن القرآن قد صور طاقة الشر العظيمة . وقوة الإغراء ممثلا لها فى الشيطان ، ووعيده . . . « قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض

ولأغوينهم أجمعين » « قال أرئيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » .

« قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن اتبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين » .

نقول : على هذا التصوير البارع لقوة الإغواء . وقدرة الإغراء وهيمنة الشيطان ، فإن القرآن فى آخر كل آية من هذه الآيات يؤكد شيئاً آخر لا يقل قوة بل يزيد على قوة الشر . وقدرة الشيطان . ذلك هو قوة الإيمان . وأن الشيطان إنما يغلب من يتولاه من الناس ويستضعف له . « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » . « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » . « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان . وكفى بربك وكيلا » .

ويصور القرآن خاتمة هذا الصراع بما يكون دائماً أثر كل استسلام من تملص المحرض من كل مسئولية . وتركه المستسلم يقاسى مغبة غفلته . وعاقبة استسلامه . ويتذوق هذا الذى زينه له الشيطان فتاق إليه ورغب فيه . فإذا هو سراب . « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم . وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم . ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى » .

« كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين » . « وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك . فألقوا اليهم القول إنكم لكاذبون » « إذ تبرأ الذين أتبعوا من الذين أتبعوا . ورأوا العذاب . وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين أتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم . وما هم بخارجين من النار » .

— ٧ —

إعفاء السهو والخطأ

والقرآن مع ذلك يتسامح مع كل مخطىء يجنح للتوبة . ويقلع عن المعصية . ويعترف بذنبه . وهو كذلك يصفح عن المضطر . ويعفو عن الناسى والساهى وشق ضروب الخطأ غير المتعمد « ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به . ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما » . « والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا . إن ربك من بعدها لغفور رحيم » . « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » « وهو الذى يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات . ويعلم ما تفعلون » .

« قد فصل لكم ماحرم عليكم ، إلا ما اضطررتم إليه » « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » « والذين إذا فعلو فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله . ولم يصروا على ما فعلوا . وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى

من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه . إن الله غفور رحيم » « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » « لا يؤاخذكم الله باللغو فى إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان » « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا . فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة . إنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم » « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم » .

فإذا حان الأجل ، وصعدت الروح فقد قفل باب التوبة . وحق العقاب ، وبطل الاستعتاب ، وليس ما هو أدق من ذلك فى إحكام المسئولية ، لأنه بعد المسامحات الكثيرة الماضية المبنية على رحمة الله لعباده ، وإفساحه لهم مجال العمل ، أو حق التوبة ، والاعتذار ، لا يكون هناك مجال لمسامحه مصر مكابر وإلا لم يتميز المحسن عن المسىء أبل وبطلت المسئولية . وهدمت من أساسها ومن أجل هذا كرر القرآن هذا المعنى تكريراً . وصوره بأسلوب يرق له الجماد ووصل بالأعذار إلى غاية ما بعدها غاية .

« ويوم نبعث من كل أمة رسولا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون » « وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل » « فإن يصبروا فالنار مثوى لهم . وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين » « يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده . وخسر هنالك الكافرون » « أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن

الساخرين . أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين ، بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين » « وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر . وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب أرجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت . كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » «إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به . أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين » « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب . فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن . ولا الذين يموتون وهم كفار . أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً » «ولو ترى إذا وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » « فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون » . « يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون » .

* * *

هذه هى بعض الخطوط الأساسية التى رسمها القرآن الكريم ليحدد معالم المسئولية . ومنها يتبين لنا مدى روعتها وكمالها . وما تزخر به من حيوية وإيجاب فنحن نرى فيها الإنسان مخلوقاً مسئولا لإتمام المسئولية : الرسالات السماوية والفطرة الخيرة عن يمينه . والشيطان وإغراء الشر عن يساره . وما يفعل من حسنة تكتب له وتضاعف . وما يفعل من سيئة تكتب له دون

زيادة . ومسئوليته من خير وشر واقعة عليه وحده . وباب التوبة مفتوح له ما بقيت الحياة . وهو غير مسئول عن أعمال الغير . غير مستعتب إذا اعتذر بلا غراء . مسامح إذا كانت السيئة عن سهو أو نسيان أو خطأ غير متعمد . أو بارغام لا طاقة له بدفعه . وفى جميع الحالات يكون العدل هو الجزاء الذى يوفى يوم القيامة مع إيثار ملحوظ للرحمة والسماحة .

الباب الثانى

مسئولية القادة عن الانحلال

« أى مسخ دميم من المسوخ والوحوش يفعل فعل القائد البشرى ؟ إن أسد الصحراء . واخطبوط الماء ، ودب الجليد أنبل نفساً وأرحم ناباً ومخلباً من القائد العسكرى الذى يزجى الفيالق الإنسانية نحو الهلاك المحقق . ويجعل من آلاف الأجساد غرضاً للرماح والسيوف ودرئية للقنابل والمدافع . وهى أعف يداً ، وأطهر قلباً من السياسى المحنك الذى يسخر الذكاء والدهاء فى خدمة ملك من الملوك أو أمير من الأمراء . فيقنن القوانين ، ويركز الأوضاع بحيث تستغل الشعوب والجماعات وتحتبس فى قيودها كما تحتبس الطيور فى الأقفاص » .

— ١ —

القادة والقيادة قديماً وحديثاً

كانت القيادة — وما زالت — مسألة شديدة الأهمية ، بالغة الخطورة ، تحتل من الكتاب والمؤرخين أعظم جانب من الاهتمام ، وتؤثر فى مصاير الأمم والشعوب تأثيراً كبيراً وقد نسب طائفة من المؤرخين والفلاسفة مثل كارليل ونيتشه وهيجيل وبقيـــة الفلاسفة الذين يقدسون الدولة بصفة عامة إلى القادة والزعماء الدور الأول فى التاريخ بينما مالت بعض الدراسات الحديثة إلى الانتقاص من هذا الأثر ، ومنح الأولوية لعوامل أخرى . كالعوامل الاقتصادية كما فى النظرية الماركسية . لذلك وجب علينا أن نتناول الموضوع بمزيد من العناية وكثير من التفصيل .

إن أول الحقائق التى تبدهنا فى هذا الموضوع هو أن القيادة ضرورة اجتماعية لازمة . وليس عنها مناص . فحب السيطرة غريزة — أو تكاد — مغروسة فى نفوس كثير من الناس ، مهما كانت ألوان هذه السيطرة رئاسة أو شهرة أو غنى أو قيادة حربية أو إصلاح الخ ... وهذه الغريزة من القوة والهيمنة على نفوس أصحابها بحيث تجعلهم يخضعون حياتهم ، بل يخصصونها ، لها . . .

ومن ناحية أخرى ، فإن تكوين المجتمع يتطلب أن يكون هناك رآسة كما هو مفهوم بالبداهة فلو لم تكن الرئاسة وظيفة محبوبة ، مشتهاة ، لكان يجب إرغام بعض الناس عليها ، حتى يقوموا بحقها ، كما كان يحدث قديماً فى منصب القضاء ، إذ من المستحيل أن تتكون الجماعات ثم لا تكون هناك قيادة تتولى الإشراف والتنظيم ، ومن المشاهد أن قطيع الحيوان أو سرب الطيور

له قائده الذى يكون عادة من أكبرها سناً ، أو أقواها جسما ، وهى مؤهلات سليمة للرياسة حتى فى المجتمع الإنسانى .

فهاتان الضرورتان ، لزوم القيادة المتأتى من طبيعة الاجتماع ، ووجود غريزة السيطرة والرئاسة فى نفوس كثير من الأفراد ، جعلا القيادة ضرورة لازمة لا مفر منها .

ويترتب على هذه الحقيقة حقيقة أخرى . هى أن القيادة كانت دائماً تتمثل فى عدة أفراد ، أو طبقة ضئيلة العدد إذا قيست بالطبقات المحكومة . إذ أن طبيعة القيادة لا تتطلب الكثرة بل الكثرة تفسدها . بل لعل الإزدواج والثنائية — وهى أقل مراتب الكثرة — يفسدها — على حد قول المثل الشعبى « ريسين فى المركب تغرق » فإذا كانت طبيعة القيادة نفسها تتطلب الانفراد والاستئثار .فإن صدورها عن وازع حب السيطرة يؤكد هذا المعنى ويدعمه . لأن الذى يريد السيطرة يضيق بأى معنى من معانى المشاركة والمساواة .

وشواهد التاريخ توضح لنا أن القيادة كانت دائماً محصورة فى أيد قليلة العدد ، أو أسرات معدودة . وما نظن أننا بحاجة إلى أن ننبش صفحات التاريخ القديم لنثبت ذلك . فإن تاريخ مصر القديمة والقيصرية الرومانية والعائلات المالكة مثل « هابسبرج » و « هوهولنزن » يغنينا عن ذلك فضلا عن أن امبراطورية كبرى — هى اليابان — لا تزال حتى الآن فى يدى أسرة يعود تاريخها إلى ما قبل الميلاد .

حقاً إن العصر الحديث قد أعلا صوت رجل الشارع وأبرز الجماهير . واسهم لها فى الحكم ، وهذا صحيح من الوجهة النسبية أى بمقارنته بالحكم فى

العهود القديمة أما أن يقال إن الشعوب هى التى تحكم . أو أن نظاماً يعينه يحقق « حكومة الشعب ، بالشعب ، وللشعب » كما يقول لنكولن عن الديمقراطية فهذا ما لا يمكن قبوله ، لأنه مستحيل استحالة مادية . وقد وضح ذلك برنارد شو فى مقدمة مسرحيته السياسية « عربة التفاح » فقال « إن الشعب لا يستطيع الحكم . إذ يستحيل على كل فرد أن يكون حاكما ، كما يستحيل على كل فتى أن يكون سواقاً لقاطرة بخارية أو أن يكون رئيساً للصوص البحر . وليس فى وسع أمة أن يكون جميع أفرادها رؤساء وزراء أو دكتاتوريين . كما لا يمكن وجود جيش كله قادة أكفاء . وإن حكومة بواسطة الشعب لم تتحقق يوماً ما ، ولا يمكن تحقيقها . وما هذا إلا صراخ من زعماء الشعب لكى نصوت لهم فى الانتخابات وإذا شككتم فى ذلك وسألتمونى « ولم لا يسن الشعب قوانينه » سألتكم « ولم لا يكتب الشعب مسرحياته ؟ » فلعمرى أنه لا يستطيع ذلك . مع أن تأليف المسرحيات الجيدة أسهل من سن القوانين الصالحة . وليس هناك مائة رجل فى العالم يستطيعون تأليف مسرحية جيدة تستطيع البقاء مدة طويلة كما يجب أن تبقى القوانين » .

والطريقة التى اهتدت إليها الديمقراطية لتفادى هذا المستحيل المادى — حكم الشعب نفسه بنفسه — وبين الجمع به — أو التظاهر بذلك على الأقل — جاءت عن فكرة الإنابة . ولكن حتى هذه لا تمثل قط ، لا مجموع الشعب ، ولا أى واحد منه — اللهم إلا النواب أنفسهم . وذلك بمقتضى طريقة عملهم التى لا يرجعون فيها إلى ناخبيهم ، وبمقتضى القاعدة الدستورية التى انتخبوا على أساسها وهى ان كل واحد منهم ، لا يمثل دائرته ، وإنما يمثل الوطن ومن أجل هذا فهو غير مقيد بأى التزام قبل ناخبيه ! وهم لا يرجعون إلى هؤلاء الناخبين إلا مرة كل عدة سنوات ، ليقيموا تلك المؤامرة المتفق

عليها ، الانتخابات ، ومع أن عددهم قليل قلة لا تتناسب مع الكثرة الطاغية للمحكومين فإن مرد النواب والشيوخ إلى زعماء حزب الأغلبية وهؤلاء عادة أفراد قلائل . وأمر هؤلاء إلى الوزارة التى تمثل خلاصتهم المختارة . والوزارة الدستورية مرتبطة برئيسها ، عائدة إليه فى أمرها ونهيها ، حلها وربطها وهو يستطيع أن يقيل من أعضائها من يشاء أو يعين فيها من يريد ، فالبناء الديمقراطى — رغم مظهره الشعبى — كالبناء الفاشى ، يؤول أخيراً إلى حكم الأفراد .

وقد لاحظ أحد فلاسفة الحكم فى العصر الحديث « روبرت ميشل » أنه « حتى إذا صح أن الأمم قد انتخبت وكلاءها بمحض اختيارها[1] . فليس بالصحيح أن السيادة تبقى بعد ذلك فى أيها لأن وكلاءها يستطيعون أن يوجهوها من حين إلى حين وهى لا تستطيع توجيههم فى كل حين .

والجماعة بطبيعتها كسلى لا تنتزع من نفسها القوة على الإنشاء والابتداء فى جميع الظروف .

ولهذا يحدث دائماً فى النادى الصغير — كما يحدث فى الجماعة الكبيرة — أن يبحث المجتمعون عن رئيس يكلون إليه تصريف الأعمال الضرورية لبقاء النادى والجماعة .

والذى جرت به العادة فى هذه الأحوال أن يظفر بالانتخاب من يفرغ للعمل ويحرص عليه . ويدأب على طلبه . وقد يقع عليه تفضيل أصحابه وزملائه للسبب ونقيضه . فيفضلونه لاتقاء بأسه كما يفضلونه لأمنهم من جانبه واطمئنانهم إلى سلامته . ويفضلونه لرجحانه ، كما يفضلونه لقلة منافسته وقلة منافسيه .

---

(١) فلاسفة الحكم فى العصر الحديث للأستاذ عباس محمود العقاد ص ٩٤ و ٩٥

ويندر أن تكون هذه الصفات أكرم الصفات التى تصلح عليها رياسة الرؤساء .

« وقد لاحظ أن الرئيس يبقى فى رئاسته متى وصل اليها فيعيد الأعضاء إنتخابه كسلا من عنت البحث والاختيار وفض المنازعات وإغضاب هذا لإرضاء ذاك ، أو يعاد انتخابه لما اتخذه هو من الحيطة وتذرع به من الذرائع التى تخيل إليهم أنه عامل مهم لا غنى عن عمله ! أو أن التجديد أسلم على الأقل من ابتداء التجربة من جديد .

« يجرى هذا فى الانتخاب لرئاسة الأندية والجماعات القليلة التى من قبيلها . ويجرى مثله على التقريب فى انتخاب الرئيس للهيئات السياسية والأحزاب الكبيرة التى تتناوب الحكم مع غيرها أو تنفرد به فترة طويلة بغير مزاحمة . فمتى ظفر الرئيس بالرئاسة جعل همه الأول أن يحيط نفسه ببطانة من أخصائه يبقون ببقائه ويذهبون بذهابه . فيشرف معهم على خزانة الهيئة وجدول الانتساب إليها . ومجلس تأديبها وأداة نشر الدعوة لها ولحكوماتها ، وبهذا يأمن المزاحمة ويتيسر له أن يقضى عليها فى مهدها . لأنه يملك أسباب التخلص من المزاحم قبل أن ينجح هذا فى تأليب القوى للتخلص من رئاسته .

« ومتى توطد مكان الرئيس وبطانته على هذا النحو ، ففى وسعه أن يفرض مرشحيه للمجالس النيابية على الحزب كله قبل إعلان ترشيحهم للناخبين . فاذا هم مرشحو رئيس واحد تؤيده بطانته ولا تأمن أن تشق عصا الطاعة . وأسمهم أمام الناخبين « مرشحو الحزب ، ونواب الأمة » !..

« والأستاذ ميشيل شديد الثقة بنظرياته هذه حتى ليرتقى بها إلى درجة القانون. — بل والقانون الحديدى — الذى لافكاك من حلقاته المقفلة . ويسميه « القانون الحديدى لولاية الخاصة » The Iron Law of Oligrachy فلا يتأتى حكم فى البلاد الديمقراطية أو فى سواها بغير فئة خاصة توافق زمانها

فمن فئة الفرسان إلى فئة النبلاء إلى فئة أصحاب الأموال إلى فئة الخبراء والصناع . إلى فئات من قبيلها يبرزها كل حكم على مقتضى الزمن بغير خلاف فى جوهر القانون . وهو أن الجماهير تسلم مقادها لآحاد معدودين » .

ويوافقه على هذا المذهب الموسيو جايتانوموسكا العالم السياسى الإيطالى الذى يرى أنه « مهما يكن نوع الحكومة وفى أى بلد تحكم . وبأى عنوان تشتهر . فالظاهرة المتكررة دائماً فى جميع الدول هى أن الحكم مهمة تنحصر فى أيد قليلة جداً بالنسبة إلى الجمهور المحكوم .

هذه هى الظاهرة التى تتكرر فى جميع الدول . وستظل كما يعتقد موسكا متكررة إلى آخر الزمان لأنها ثبتت بالتجربة والاستقرار وبالاحتمال الممكن دون غيره عند تقليب المسألة على جميع الوجوه .

ولا فرق فى هذه الظاهرة بين حكومة الدكتاتور وحكومات الأمم النيابية التى يعم فيها حق الانتخاب إلى أوسع حدود التعميم[1] » .

وهذا هو التفسير الوحيد لما نلمسه من تخبط وأخطاء فى الأساليب السياسية وبعد عن رغبات الشعوب ومجافاة لآمالها . فما من شعب واحد يحب الحرب أو يمجد القتل أو يطرب لدخول المجزرة ، ومع ذلك فلم تكن الحروب أشد هولا وبشاعة وشمولا للعالم . وطحناً للشعوب والآمنين من النساء والأطفال ، مما هى عليه فى حكم الشعوب المزعوم ، وما من شعب واحد ، لو ترك وشأنه يقبل أن يدفع ضريبة الاستعمار الفادحة أو يتعرض لمصيره الرهيب ومع ، ذلك فان المزارع الهولندى يقتل فى أندونسيا ، والبورجوازى الفرنسى يحارب فى الصين ، والعامل الأمريكى يقاتل فى

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٢ .

كوريا ، والانجليزى البارد يتلظى تحت أشعة شمس الاستواء النارية ... وأعجب من ذلك أن الجماهير قلما تستطيع فكاكاً من ذلك . لأنها قد أوهمت داخل هذه البلاد — كما أوهمت الشعوب الأخرى خارجها — أنها إنما تحكم باسم شعوبها ، وأن قادتها إنما يمثلونهم ويصدرون عن آرائهم ، وجاز عليهم جميعاً هذا الوهم أن الوسائل التى أوجدتها الشعوب لتدافع بها عن نفسها ، ولتعلى كلمتها تخونها وتنقلب عليها ، وتستغل ضدها ، وتكون ظهيرة للقادة لا لها . فقد لا يكون هناك أكثر شعبية من تلك القوة العظيمة التى يسمونها الرأى العام . ومع ذلك فما هو مرد الرأى العام ؟ إنه يعود ، كالتمثيل النيابى — وأقل — إلى أفراد معدودين يهيمنون عليه عن طريق الصحافة والسينما والدعاية ويسيرونه لمصالحهم . وهم يحاربون الوزارات — عادة — لأنها تحول بينهم وبين الحكم والمصالح فاذا تنحت اقتعدوا مجلسها وتابعوا سياستها وحذو حذوها ، بينما تنكص الوزارة القديمة ، وتتملص مما كانت تفعله ، وتعيب على الوزارة الجديدة ما كانت تأتيه هى !

وهكذا نرى أن هذه القوة — أشد القوى شعبية وأكثرها مساساً بوقائع الأمور ولمساً لحالة الشعب — تنقلب عليه وتؤثر فيه لمصلحة القادة ، وتنال من مناعته ، والشعوب فى حيرتها ، كالشاعر القديم .

إذا فضائلى اللائى أدل بها كانت عيوباً ، فقل لى كيف اعتذر!

وكلما يتقدم العصر ، وتتعقد الحضارة وتتعدد شئون الحياة ، ووسائل المعيشة ، ويسرف الناس فيها وتطلق الحريات والأهواء ، كلما تزيد أهمية القيادة وتتضاعف منزلتها وتثقل مسئوليتها ، وكلما تتعدد أيضاً الوسائل التى تحكم بها ، ويكثر عدد الأتباع والمؤمنين فكل من الكاتب والصحفى والمذيع والممثل السينمائى فى هذا العصر يستطيع أن يسمع صوته ويبث فكرته ، ويلحن

بحجته أكثر أضعافا مضاعفة مما كان يستطيعه الداعية القديم . ونحن نسمع عن زعماء هم فى الواقع ، وكما يعلم الجمهور ، أوساط من الناس ، غير موهوبين أو مميزين بعبقرية خاصة ، وهم مع ذلك يتصرفون فى مصير ملايين من الناس هم أعضاء حزبهم . وهناك ، فى حزب العمال البريطانى مثلا ، مندوبو نقابات يمثل الواحد منهم عدة ملايين من الأصوات . كما فى نقابة عمال الصلب أو الموانى أو السكك الحديدية . وهذا المندوب يقضى عنهم ويختار لهم . فى حين أننا نعلم من القرآن الكريم أن شعيب قد أرسل إلى « مائة ألف ، أو يزيدون . . . » .

وكذلك يستطيع أى قائد حربى حديث فى دولة وسطى أن يرأس جيشاً يزيد عدده عن الجيش الذى قاده هانيبال ودوخ به روما أو الجيش الذى رأسه الاسكندر وفتح به العالم أو انبعث من أحشاء الجزيرة العربية وغزا به الشام والعراق الخ . وسمعنا عن جيوش تتطاحن أياماً طوالا ، بل شهوراً وسنين ، فى حركة أو معارك ، وكان يفصل قديماً فى معارك لا تستمر إلا ساعات .

ذلك أن العلم الحديث قد وضع فى أيدى القادة أسلحة ماضية من الصحافة والاذاعة والسينما وغيرها يستطيعون بها أن يتصلوا ، وبالتالى يؤثروا ويحكموا ، أضعاف اضعاف ما كان الزعماء فى القديم يستطيعون بدونها الاتصال ، أو التأثير ، وبالتالى القيادة .

وفضلا عن ذلك ، فإن شيوع الثقافة واعتبار العمل السياسى مشاركة وطنية يجب أن يساهم فيها كل مواطن ، ومواطنة ، وقد يلزم بها إلزاماً كما تقضى بذلك بعض الدساتير التى تحتم على المواطنين ضرورة الاشتراك فى الانتخابات ، قد جعل الكتلة الشعبية جسيمة هائلة ، وأوجد ذلك أمام القادة ميداناً خصباً لدعايتهم وقيادتهم . لأنه لما كان من المستحيل أن تعمل

دون قيادة أو أن تقود نفسها بنفسها فقد قضى عليها أن تكون مشاركتها مشاركة الأتباع والأنصار . ووجدت نفسها ، مختارة أو مرغمة ، تقضى وقتها فى التصفيق للزعيم ، والصفير للمعارضة . ونظرياً هى الحاكمة ، ومصدر السلطة والسيادة . ولكن منطق الواقع غير ذلك . وكل طريقة تبدعها للتخلص من ربقة إسار القيادة ، تفرض عليها إساراً جديداً ، فإذا حاربت القائد الديمقراطى بقائد شيوعى أو فاشى . كانت كالمستجير من من الرمضاء بالنار ، وإذا استعاذت بحزب أو ألفته ، استغلها الحزب الجديد كالقديم تماماً . وليس إلا الثورة ، ولكن الثورة عمياء مهولة ، تبدأ بأعدائها وتثنى بأبنائها ، وفضلا عن ذلك فإنها تبرز — أتوماتيكياً — الطاغية الجديد .

فالعصر الحديث يجمع بين نواح متشعبة ، من شأنها جميعاً أن تزيد فى أهمية القيادة . فالجماهير زاد عددها وتنورت تلك الكتل التى كانت توصف قديماً بأنها « السواد الغافل » . وأصبحت المشاركة السياسية واجباً عليها . ورغم ذلك فلم يزل حكم الشعب نفسه بنفسه مثلا أعلى لا يدرك ونظرية لا تطبق . ولم يصل النضوج بالجماهير إلى الدرجة التى تستغنى فيها عن القيادة أو حتى تحمل من أعبائها شيئاً مذكوراً . لأنها تطرح نوعاً من القيادة لتستظل بآخر ولأن وطأة الحكم على الشعوب مازالت قاسية فى الديمقراطيات وغيرها على حد سواء . والحروب — عدو الشعوب رقم ١ — ما زالت مهددة للشعوب ، كأبشع ما كانت .

والنتيجة هى أن اتباع القائد فى العصر الحديث يزيدون زيادة كبرى عن أتباعه فى العصر القديم . وأن أعباءه تتشعب وتتعدد أكثر مما كانت من قبل . وهذا وذاك — أى زيادة الأتباع وثقل الأعباء — مما يزيد فى أهمية

القيادة . ومن السفسطة أن يزعم أحد عكس ذلك . فإن أعظم النظريات التي تنتقص من قدر القيادة ونصيب الزعماء — وهي النظرية الماركسية — تدين لبضعة من الزعماء بوجودها وقيادتها . ولولا هذه القيادة لما ظهرت بهذا المظهر ، حتى ليمكن القول أنه لم يظهر أثر الرجال والقادة ، مجسما ، عظيما ، كما ظهر في نمو الحركة الشيوعية ، مما يكاد يتعارض مع مبادىء النظرية الماركسية نفسها معارضة كبرى .

— ٢ —

أهمية القيادة ومدى تأثيرها على الشعوب

لماذا كانت للقيادة هذه الأهمية البالغة في العصر القديم والحديث ؟ الجواب على ذلك هو أن القيادة تمس ، بالدرجة الأولى ، مصاير الناس وتؤثر تأثيراً مباشراً عليهم فإعلان حرب مثلا معناه القضاء على عدة آلاف أو ملايين من الناس بالقتل ، وعلى أبنائهم وأمهاتهم باليتم والثكل وعلى عدة آلاف من المساكين بالهدم والخراب ، وانتهاج سياسة اقتصادية معينة قد يجر الإفلاس على الألوف . ويغمر بالثروة ألوفاً أخرى . وقد ينتزع الملايم من المحتاجين المعدمين ليكدسها جنيهات للأغنياء المتخمين ، واعطاء امتياز أو احتكار أو عقد معاهدة يقيد البلاد مدة قد تصل إلى ٩٩ سنة ، وبذلك يتحكم القائد لا في جيله كله فحسب ، ولكن في أجيال أخرى عديدة .

وإنك لترى القاضي في المحكمة قابضاً على صولجان العدالة ، مرتدياً وشاح القضاء الرفيع ، آمراً ، ناهياً ، السيد المطلق في قاعة الجلسة ، وترى شارات وظيفته تكاد تغطي على شخصه ، أو تنظر إلى القائد تلمع أوسمته ، يصدر الأمر فلا يجاوب إلا بكلمة « تمام يا أفندم » ، وأنى سار أو تحرك قابلته الأيدي

بالتحية ، فإذا أحيل القاضى والقائد على الاستيداع ارتسمت فى الذهن صورة هزيلة لشيخين محطمين لا يملكان لأنفسهما شيئاً . ولا تقبل وساطتهما إن توسطا للغير وهما فى لبسهما المدنى المجرد لا يفرقان عن الغمار الشعبى السائر فى الشوارع ، أو الجالس فى النوادى . أى بون شاسع بين الصورتين ؟ وفى تقدير الناس وفهمهم ومعاملتهم ؟ ألا إن هذه الملاحظة العابرة لهى دليل أى دليل على أن أهمية القائد لا تعود إلى نفسه وشخصه قدر ما تعود إلى المنزلة التى منحها له المجتمع ، والمقعد الذى أجلسه عليه حيث يستطيع أن يتحكم فى المصائر .

وما من شك فى أن ذلك ليس هو شأن المهن الأخرى فالإسكافى والزارع والبقال والتاجر والصانع يتعاملون مع أشياء ، والطبيب والمحامى ، وإن كان عملهما يدور على الناس ، ويؤثر على المصائر ، إلا أن ذلك يتم بشكل فردى لا يمكن أن يقاس بتأثير القيادة الإجماعى الشامل فضلا عن اختلافهما فى مباشرة المهنة وطريقة الحكم والوصول إلى نتيجة . فالطبيب يكشف ويعاين ويستعيد دراساته ويحكم بمشاهداته ثم يصف الدواء ، ويلحظ أثره على المريض ، فإذا كان ناجعاً سار به إلى الشفاء . وإلا بدله بآخر أو استشار زميلا أو رجع إلى مصادره . وكذلك المحامى إذا فشل فى قضية فإنه يستطيع أن يستأنف ، فإذا خسر الاستئناف أمكن الطعن فى الحكم بطريق النقض والإبرام . وفى جميع الحالات فإن مغبة أعمالهما فردية ، تعود على أفراد لا على جماعات .

أما القائد فمن المستحيل أن يلمس بنفسه كل الأمور التى يقضى فيها ، وإنما يقدمها له حاشيته . وما أفظع دور الحاشية فى التاريخ ! ذلك أن الإنسان قلما يستعين إلا بمن ينمق له المدح ، ويكيل له الثناء ويوافقه ، ويخضع له . أما أحرار الفكر ، أقوياء النفس فإنه ينفر منهم ، فإذا لم يحاربهم ، فإنه — على

الأقل — لا يتعاون معهم ولا يفيد من خبرتهم . وهذه ناحية ملموسة تدور على ألسن الناس ، فى كل العصور فهم لا يفتأون يقولون عن فلان من الزعماء إنه طيب ، ولكن حاشيته سيئة . وقد شكا عمر بن الخطاب من قبل من خيانة القوى . ووصف الأقدمون كما وصف شوقى بك فى أبيات رائعة التأثير الهدام المدمر للمدح والملق فى نفس القائد :

يولد السيد المتوج غضاً ... طهرته فى مهدها النعماء
فإذا ما الملقون تولته ... تولى طباعه الخيلاء
وسرى فى فؤاده زخرف القـ ... ـول يراه مستعذباً وهو داء
فإذا أبيض الهديل غراب ... وإذا أبلج الصباح مساء

ثم ان نتائج عمل القائد لا معقب لها والعياذ بالله ! فالمقتول لا يعود إلى الحياة ، والمهدوم لا يقوم مرة ثانية إلا بجهد جديد كأن لم يغن بالأمس ، والهزيمة النهائية حكم باستعباد قد يظل قروناً . وقد قضت أهواء امرأة بأن تخسر مصر معركة « اكتيوم » فتستعبد للرومان سبعمائة سنة ! وقضت غفلة الغورى على مصر بأن تسقط فى أيدى الترك ثلاثة قرون !

وهذه النتائج الخطيرة ، على ذلك ، لا تكلف القائد إلا امضاء أو أمراً يضعه وفكره مشغول ، وذهنه مهوش ، فيهدم به بيوتاً ، بل بلاداً ، ويتم آلافاً ، بل ملايين ، ويقضى على الشعب بالتخبط فى أقفاص الاحتكار والامتياز واغلال الاتفاقيات والمعاهدات .

والعجيب ان هذه الأعمال البالغة الخطورة ، والمؤثرة تأثيراً كلياً على مصاير الملايين ، لا تتجسم له بكل خطورتها وبشاعتها فالإسكافى مثلا يأخذ الجلد فيصنعه على عينه ويبده حذاء ويلم تماماً بكافة الأدوار من دبغ الجلد

إلى وضع الحذاء فى القالب . أما قائد الجيش ، فهل يتصور ، عندما يمهر بامضائه أمراً بغارة جوية مدى بشاعة هذا العمل ؟ وحتى لو تصوره ، كالفيلم أمام عينه وهو جالس إلى مكتبه الوثير ، فما قيمة هذا التصور ؟ إن الانسان لا يتأثر إلا بالمشاهدة ، واللمس ولو رأى هذا القائد رأى العين ، ولمس لمس اليد أعقاب غارة جوية ، والحريق ، والصراخ والعويل ، والإصابات والتشويهات وهلع الأمهات ، وتشريد الآمنين ، وهدم البيوت ، وبتر الأعضاء ، وقتل الأطفال ، لو رأى هذا كله ، لتردد قبل أن يوقع ، ولكنه لا يلمس شيئاً من ذلك كله ، وهذا يجعله يقدم شجاعاً (وأى شجاعة) على قذف الآلاف إلى الأتون الملتهب المصهور ، والمروحة الكهربائية تداعب فى مكتبه الفخم وجهه بالنسيم العليل .

وأعجب من ذلك كله ان المعركة تنشب وتنتهى يموت من يموت ، ويشرد من يشرد ، ويقضى بالفقر والعهر والبطالة والبؤس على الجموع البشرية والقطعان الشعبية والقائد — أصل ذلك — هو هو لم يتغير . ولم يفقد حتى فى الهزيمة — بلهنية العيش — فإذا مات منتصراً أقيمت له المقابر الضخمة الممردة ومنح آله وورثته الألوف من مال الدولة . وإذا عاش منهزماً كفلت له أسباب الحياة على نحو طيب فيقضى وقته يزيف التاريخ ويبرر هزيمته كما فعل نابليون فى سنت هيلين أو ولهم الثانى فى هولندا . ولو قضى على القادة أن يكونوا أول المتحملين لمغبة أعمالهم . فيعرض أبناؤهم فى الغارات الجوية قبل أبناء الشعب . وتذوق أسرهم الحرمان والبطالة والذل كأفراد الشعب . ويحكم عليهم — كما يحكم على الناس ، بالجلد والسجن والأشغال الشاقة — لكان للقادة رادع قوى ، ولكن القادة يجاملون بعضهم بعضاً . والشعوب وحدها تدفع الثمن ...

هذه هى منزلة القيادة . لا جرم إن كانت أعظم المنازل وأخطر الدرجات . وماذا عسى أن تكون المهام الأخرى بجانبها ؟ ماذا عسى أن تكون أحلام الرجال والنساء والشباب ومشاريع المتطلعين إلى المستقبل أمام القيادة التى تودى بهذه الآمال كلها ، كريح عاصف لا تبقى ولا تذر . أو تقلبها رأساً على عقب كزلزلة لا يثبت أمامها شىء .

أى مسخ دميم بين المسوخ والوحوش يفعل فعل القائد البشرى ؟ إن أسد الصحراء وأخطبوط الماء ودب الجليد أنبل نفساً وأرحم نائباً ومخلباً من القائد العسكرى الذى يزجى الفيالق الإنسانيـة نحو الهلاك المحقق . ويجعل من آلاف الأجساد غرضاً للرماح والسيوف ودريئة لقنابل المدافع . وهى أعف يداً ، وأطهر قلباً من السياسى المحنـك الذى يسخر الذكاء والدهاء فى خدمة ملك من الملوك أو أمير من الأمراء . فيقنن القوانين . ويركز الأوضاع بحيث تستغل الشعوب والجماعات وتحتبس فى قيودها كما تحتبس الطيور فى الأقفاص .

إن قبول بن آدم للتبعة الإنسانية المجردة ولأمانة التكاليف والواجبات الفردية هى جرؤة أشفقت منهـا السموات والأرض والجبـال . أما أن يتحمل الإنسان فوق ذلك التبعـة الفادحة للآلاف والملايين . فأمر يفضل العاقل أن يرمى بالجنون قبل أن يتحمله . كما كان يفعل المرشحون للقضاء فى الزمن القديم ! ويدفعه لأن يغشى عليه إذا سمع مثل هذه الآية « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » أو يجعله يعمل ، ويعمل ، ويكدح كما كان يعمل عمر بن الخطاب ثم هو سعيد بعد ذلك إذا خرج منها كفافاً لا له ، ولا عليه ! .

والواقع أن الإنسان يرتعد عند ما يتصور ملايين المظالم التى ترتكب كل

يوم باسم الحاكم ، وباسم القانون وعندما يخترق بعين فكره سدفات الليل المظلم فيرى الحسرات والآلام التى لا حد لها تحجبها الجدران الصماء ، وتكبتها النفوس فى أطوائها .

***

مثل هذه الأعباء الجسيمة الخطيرة جعلت القيادة مسئولية عظمى ، شاد النبي الكريم بأهميتها فقال « عدل ساعة خير من عباده ستين عاماً » وقال « ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا لا يفكه عن ذلك الغل إلا العدل » وجعل أعظم الشهداء شهيد قال كلمة حق عند سلطان جائر فقتله .

وأشار القرآن إلى هذه المعانى كلها ، وصور التبعة الثقيلة على القادة ، وذكر أن هناك قادة صالحون « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة » « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

وهناك قادة طالحون ، يفسدون فى الأرض ، ويذلون الشعوب ويقودونها إلى النار وبئس المصير « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الرفد المرفود » « كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ، ويهديه إلى عذاب السعير » « وأضل فرعون قومه وما هدى » « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » « وجعلناهم أئمة يهدون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون » « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون » .

وضرب المثل لأهمية العمل الجماعى بصفة عامة وكيف يحيق أثره بالمجموع

بتسعة نفر من المتآمرين من قوم صالح « وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، فقالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ، ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم أجمعين ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن ذلك لآية لقوم يعلمون » .

— ٣ —

رسالة القادة وتوجيهات القرآن الكريم للأنبياء

إذا كانت أهمية القيادة وقداستها وخطورة مسئوليتها إنما جاءت من مساسها بالشئون العامة وتأثيرها عليها وتعلقها بالناس ، وحياتهم ومصائرهم ، فمن الطبيعى أن تكون هذه الشئون العامة ، وأصحابها من الشعوب ، هى هدف القيادة وغايتها ، ومن اللازم أن يجعل القائد غرضه الوحيد — الذى لا يشرك به شيئاً — هو هـذه الشئون وهؤلاء الأفراد الذين منهم تنبعث أهمية منصبه ، ولما كانت الشئون العامة من الضخامة والخطورة بحيث تستنفد طاقته ، دون أن تنتهى ، كان من العسير جداً على القائد الذى يفهم واجبه ويحافظ عليه أن يجد من وقته فراغاً ، أو من نفسه اهتماماً ، يمنحه لرعاية شئونه الخاصة والعائلية .

وهكذا تبدو لنا قسوة وضعية القيادة كما يجب أن تكون وتبدو حقيقـة يراها القائد الأصيل وضعاً سليما ، وينشد القائد المزيف ازاءها .

أليس من العجائب أن مثـلى يرى ما قل ممتنعـاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شىء فى يديه

تلك الحقيقة هى أن القائد ، يعطى ويهب الناس ، ولـكنه لا يأخذ هو ،

لأنه فى الواقع يعطيهم من أموالهم ، وان يكون مهيمناً على الجميع ، ولكنه يهيمن على نفسه قبلهم فلا ينيلهامن ثمار طاعة الناس له ، وانقيادهم إلى أمره شيئاً ، وأن يكون معرضاً لأشد أنواع الإغراءات ، ومكلفاً فى الوقت نفسه بالصد عنها ، والزهد فيها والحرمان منها ، وأنه وان كان يشرف على كل الوسائل إلا ليس هو الغاية بل اكثر من ذلك يكتشف أنه « إذا سمن الراعى هزلت الرعية » كما اكتشفت ذلك زوج عمر بن عبد العزيز . . وان عمار ميوت الناس قد يحيف على بيته فيصيره خرباً أو كالخرب .

ومن الصعب العسير على أى قائد أن يتحمل هذا الوضع القاسى وأن يخضع إرادته ، أو يروض نفسه على احتماله ما لم تكن هناك قوة معنوية تشد أزره وترفع روحه ، وتسمو بنفسه فوق الأغراض الدنيوية ، وتوجه فيه نوازع الطموح ، وقوى الملكات للخدمة ، وللخدمة فحسب ، قلباً وقالباً ، بعنى ومظهراً . وهذه القوة المعنوية فى أعظم صورها هى الإيمان الدينى لأنه الوحيد الذى يسحق نوازع النفس الدنيوية والذاتية سحقاً . ويأتى بعد الدين أقرب الدعوات اليه وأشدها إكتساباً للمعنى العقدى . ومن أجل هذا كانت القيادة فى الدعوات الفاشية والشيوعية أبرز من القيادة فى المذاهب الديمقراطية . ومن أجل هذا أيضاً كان الأنبياء أرفع درجات القادة وأنبلهم كفاحاً وأشدهم جهاداً أو هم — كما قال شوقى — ملوك الحقيقة (١) .

وانك لتلمس ظاهرة عجيبة فى القرآن قد لا يفهمها الانسان لأول وهلة . أو يدرك حكمها الرائعة ما لم تكن عيناه قد تفتحتا على مسألة القيادة . تلك

---

(١) انما الأرض والقضاء لربى ... وملوك الحقيقة الأنبياء
لهم الحب خالصاً من رعاياهم ... وكل الهوى لهم والولاء
« شوقى »

هى التوجيهات الرائعة التى يسوقها القرآن للانبياء والتى تتضمن دستوراً إلهياً فى القيادة والدعوة لا يقاربه أى دستور آخر . وترسم للنبى طريقاً لحباً واضحاً لا أمت فيه ولا التواء . وتنير له سبيل هذا الطريق . وتجنبه العثرات وتذلل له العقبات .

وهذه التوجيهات تدور حول محور أساسى هو أن الرسالة وقيادة النبى مسؤولية موضوعية بحته . لا أثر فيها للذاتية ولا للعنصر الشخصى . وان الأنبياء دعاة أولا وآخراً . وشخصيتهم محصورة دائماً بأدوات الحصر الوظيفية « إن أنت إلا نذير » « إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » « وما أنا إلا نذير مبين » « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » « إنما أنت منذر » « قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين » وشخصياتهم وعواطفهم وحياتهم الخاصة كلها تبع للدعوة لا تنحرف عنها قيد شعرة . وبذلك يوجد القرآن أعلى طراز من القادة المتجردين للقيادة الذين يجدون فى التفرغ للدعوة . والحرمان مما عداها معانى لا يظفر بها غيرهم . إذ الوصول إلى الأعماق يتطلب أعلى مراتب التركيز والتفرغ ، وكلما زاد التركيز زاد التعمق ، وكلما تعددت مشاغل النفس كلما طارت اهتماماتها شعاعاً وتفرقت أشتاتاً . وتوزع تركيزها . وضؤل نصيبها من التعمق . كما أن هذا الحرمان مما عدا الدعوة يصقل النفس ويجردها من أنانيتها واعتزازاتها بالخصوصيات الفردية . والمقتنيات الشخصية ويحسم ما توجده الوفرة والتخمة من إثقال بالداعية إلى الأرض . وإخلاد به إلى السكون وتلويث لصفائه الفكرى أو استهلاك لنشاطه فى هضم ما أكل . وتسويغ ما بلع . فضلا عن أن هذه العروض والمشاغل تقوم سوراً بينه وبين الجماهير المحرومة والآلاف المترقبة التى تتطلب نصيبها من وقته وحقها فى

اهتمامه ، وتحول بينه وبين التجاوب الفكرى معهم . وبذلك ينعزل الداعية عن جمهور دعوته ولا يوجد ذلك الجو من الفهم والتعاطف الذى يترفق فى إدخال الدعوة إلى النفس ويصهر الخلافات ويزيل العقبات ويكشف حقائق الأمور وأعماقها لا مظاهرها السطحية . وأخيراً فبغير هذا الأدب القاسى والمران الدائم وإغلاق الباب أمام كل إغراء لا يعلم أحد أين تقف الشهوات بالنفس الإنسانية . وما مدى تقلب القلب وانحرافاته . إن أقل تسليم يعد انتصاراً كبيراً . ويعقبه تسليم أكبر وهكذا حتى يجد الإنسان نفسه عبداً لسورة الاقتناء والملكية . وتسلمه الرغبة فى القليل إلى الرغبة فى الكثير . وتسترقه العادات ويقسو منه القلب وتجمد الحواس .

ومن أجل هذا جارت الصفة الوظيفية على الصفة الشخصية . فمع أن الأنبياء والدعاة والقادة من حقهم ، كأشخاص ، أن يظفروا بما يظفر به ، على الأقل أوساط الناس . إلا أن الصفة العامة لهم حافت على الصفة الخاصة وانتقصت منها حتى رأينا النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر يجوعون بينما يشبع الناس . ويعرون عندما يكتسى الناس . ويسهرون عندما ينام الناس . وكان النبى أشد الناس تعبداً . وأكثرهم تهجداً وإن غفر له مقدماً ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

فلننظر الآن إلى القرآن كيف يعالج هذا المعنى فى توجيهاته للأنبياء والقادة وكيف يحيط به من أطرافه ويلم به من أقطاره ويركزه تركيزاً . فهو يشير إليه بصفة عامة حيناً « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون» . « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك . وإن لم تفعل فما بلغت رسالته . والله يعصمك من الناس » . « فلذلك فادع واستقم كما أمرت . ولا تتبع أهواءهم . وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم .

الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم . الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

ثم يعود فيوضح هـذا المعنى من ناحية أخرى . ناحية أن الأنبياء لا يأخذون أجراً ، ولا يطلبون مالا ولا يزعمون لأنفسهم صفة أكثر من أنهم بشر ، من الله عليهم بالرسالة ، وجعلهم مبشرين ومنذرين بأمر لا يتحولون عنه ولا يزيدون فيه ، أو ينقصون منه أو يلجأون إلى طرق الرشوة الأدبية أو وسائل الإغراء أو الإرغام ، وإنما يكلون ذلك كله إلى الله يحكم فيه بإرادته .

« قالت رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم . ولكن الله يمن على من يشاء من عباده . وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله » « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله . أفلا تعقلون » . « ويا قوم لا أسألكم عليه أجراً . إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون » . « ويا قوم لا أسألكم عليه مالا . إن أجرى إلا على الله » . « وإن توليتم فما سألتكم من أجر . إن أجرى إلا على الله . وأمرت أن أكون من المسلمين » . « قل ما أسألكم عليه من أجر . إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » . « وما أسئلكم عليه من أجر . إن أجرى إلا على الله رب العالمين » . « ولا أقول لكم عندى خزائن الله . ولا أعلم الغيب . ولا أقول إنى ملك . ولا أقول للذى تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً . الله أعلم بما فى أنفسهم . إنى إذا لمن الظالمين » . « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » « قل ما كنت بدعاً بين الرسل . وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى . وما أنا إلا نذير مبين » .

وتارة أخرى يشير القرآن إلى هـذا المعنى نفسه من ناحية ثالثة . هى

أن الأنبياء لا يستطيعون إنقاذ آلهم إذا استحبوا الكفر على الإيمان . وأنهم لا يملكون لهم من الله شيئاً . « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين . ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه . فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه . إن إبراهيم لأواه حليم » . « ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وان وعدك الحق . وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح إنه ليس من أهلك . إنه عمل غير صالح فلا تسئلن ما ليس لك به علم . إنى أعظك أن تكون من الجاهلين » .

وتارة رابعة يحذر القرآن الأنبياء من الفتنة أو الميل ، ويعدهم العذاب مضاعفاً . . « . . وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . . » « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره ، وإذاً لأتخذوك خليلا ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا إذاً لأذقناك ضعف الحياة ، وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً . . » « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » . « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين » .

حتى هذه الاثارة الذاتية التى تتردد فى نفس الأنبياء وتثير فى قلوبهم الحسرة آناً ، والشفقة آناً آخر ، والحرص على إيمان الناس وهدايتهم آناً ثالثاً ... تأتى الآيات صريحة فى اطراحها ، وإيكال الأمر كله لله ، والاستعانة بالصلاة وعدم السماح بنوازع النفس أو دوافع العاطفة بالظهور « إن تحرص على هداهم ، فإن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين » « وإن كان كبر عليك أعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى

السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين » « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، إنما أنت نذير ، والله على كل شيء وكيل » « وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » « ولا تحزن عليهم . ولا تكن فى ضيق مما يمكرون » « إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين » « أفأنت تسمع الصم ، أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين ، فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ، أو نرينك بعض الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ، فاستمسك بالذى أوحى إليك انك على صراط مستقيم » .

وفى هذه الآيات حكمة عميقة ، فتحت ستار الرغبة فى هداية الناس ، تكمن عدة عوامل بعيدة كل البعد عن الرغبة الخالصة النقية فى الهداية ! وإنما يظهرها الشيطان فى هذا الشكل ليتخذ منها ثغرة ومنفذاً ولئن عصم الله الأنبياء منها . فإن القرآن ليشير إلى هذه الناحية الخطرة حتى يتأس القادة بالأنبياء ويتبعوا الدستور الآلهى الذى سنه الله عز وجل لهم لأنه أعلم بما توسوس به النفوس ، وتتقلب عليه القلوب ، وما أكثر ما تكون الرغبة فى الهداية بادرة طغيان أو علامة تسلط ، أو مظهراً من مظاهر الزهو الشخصى بكثرة الاتباع ! وما أكثر ما يدفع الاغراق فى تطلبها القائد إلى أساليب ليست من الدعوة في شيء كارغام الناس على الهداية ارغاماً ، أو التنازل عن بعض دعوته ، أو تبسيطها أو اظهارها بالمظهر البراق اللامع . أو مهادنة من لا يستحقون المهادنة . فإذا لم يفعل ذلك ، فلعله باخع نفسه مستقل لجهاده .

أثر هذه التوجيهات فى النهوض بالقيادة الإسلامية

ما أروع هذه التوجيهات الإلهية الشاملة : دعوة مطهرة من السماء ، يحملها رجل لايفتأ يكرر أنه بشر مثل الناس سواء بسواء ، لا يتعالى عليهم ، ولا يطلب على دعوته أجراً ، ولا يرى لنفسه ولا لآله حقاً فى امتياز أو إعفاء من واجب ، ولا يجعل لعواطفه وأهوائه سلطاناً على دعوته أو دخلا فيها ، ما أعظم البون بين هذه القيادة النبوية المطهرة ، وبين قيادات الملوك والأمراء ، الذين يتعالون على الناس وينسبون أنفسهم للآله ، ويفخرون بالحسب والنسب ، والدماء الزرقاء والألقاب الموروثة ، ويؤثرون أنفسهم بأطيب الخيرات ، وأعظم الثروات والشعوب جائعة ، عارية ، فقيرة ، ويجعلون عواطفهم وأهواءهم قانوناً نافذاً ، ويشركون آلهم فى هذه الامتيازات .

لقد تأدب نبينا صلى الله عليه وسلم بآداب القرآن . وكان خلقه القرآن ، كما قالت السيدة عائشة ، فهو وإن كان من أوسط قريش حسباً ، وأعلاها نسباً ، وأفصحها لساناً ، فهو يقول « إنما أنا عبد ... آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » « اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين » ، وإذا فاتحه أصحابه فيما يتخذ من فراش خشن واقترحوا أن يتخذ فراشاً ناعماً غضب غضبة نبيلة تنبأ حقاً بأنه كان خالصاً مخلصاً لدعوته ، وإذادخل مكة فاتحاً منصوراً ، خفض رأسه ، وشغل لسانه بالتسبيح ذلك لأنه يعلم — كما علمه الله — ان ليس له من الأمر شيء ، فإذا فتح فتحاً أو أحرز نصراً فالله أحق بالشكر . وأولى بالثناء ، وإذا أتى بمال أو سلم متاعاً ، فإلى المصارف التى أمره الله بها ، إلى بيت مال المسلمين

لينتفع بها المئات من الناس لا ينال محمد وآله إلا كما ينال آحاد الناس . ثم لا يورث بعد ذلك ! ولا يرى لآله من صلة النسب — حصانة تنجيهم من العقاب أو تعفيهم من الواجبات فهو يجمع آله ، ويقول لهم « إعملوا ... فانى لا أغنى لكم من الله شيئاً » .

وإذا خاطبوه أن يعفى امرأة شريفة سارقة من حد السرقة قام غاضباً يرى حداً شرعياً وقانوناً عاماً سُن للجميع يراد له أن ينتقص لناحية ذاتية فيضرب المثل بابنته المحبوبة « فاطمة » « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

فلما مات ، ودرعه مرهونة عند يهودى خانت الشجاعة عمر وغيره من الصحابة ، فى ساعة العسرة والشدة التى فاقت المدارك ، فحسبوا محمداً خالداً كدعوته ، ونسوا أن الأنبياء إنما هم رسل فحسب عليهم التبليغ ، ولله وحده له الخلود ، وهو وحده الغاية ، فارتفعت صيحة أبى بكر تصحح الخطأ . وترد الصواب الذى عزب عن العقول ساعة الشدة . « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حى لا يموت » « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الشاكرين » .

وهكذا عاش لدعوته ، ومات لدعوته ، وحق فيه قوله « حياتى خير لكم وموتى خير لكم » .

هذا الدرس العظيم فى القيادة تشربه أبو بكر وعمر وانتفعا به انتفاعاً ظاهراً ، بل انتفع به العرب قاطبة وإلا ما كانوا ينتخبون أبا بكر انتخاباً ثم يفرضون له فرض رجل من عامة المسلمين لا وكس ولا شطط ثم يحاسبونه

بعد ذلك بألسنتهم . ويقومونه بسيوفهم . فهذه كلها أفعال لا يمكننا أن نمر عليها سطحياً لأنها تنبىء عن فهم عميق من الشعب لنفسه وحقه وإدراك لواجب القيادة ، وإن القائد « موظف عمومى » فحسب ، ليس له أن يعمل لنفسه ، وأن وقته قد أصبح ملكا للدولة ، فلا يجوز له أن يضيع شيئاً منه .

وبجانب هذا الإصرار من الشعب على حقه ، نجد مقابلا له اصراراً لا يقل عنه من القائد على حق هذه الأمانة التى أؤتمن عليها . فهو يقف وقفة الجبال الشامخة ، لا يرق ولا يلين ولا يقبل دنية ولا يرضى فى جنب الله مساومة ، أو مهادنة ، ويرفع صوته « والله لو منعونى عقالا كانوا يأدونه إلى رسول الله لحاربتهم عليه ما استمسك قائم السيف بيدى » وهكذا يكون الحرص على الأمانة ، والتقدير للتبعة فما كان المشركون يدفعون إلى أبى بكر أو إلى محمد ، وما كان أبو بكر أو محمد يستفيد من هذه الأموال ، ولكنها أموال الشعب يريد الكبراء أن يحتجزوها دونه ، وليس أبو بكر بالذى يفرط فى درهم منها ، أو يأخذ درهماً منها لنفسه ، وكيف يمسه وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ينذر القوارع ، لمن يأخذ شيئاً من مال المسلمين دون وجه حق ، أو يستغل صفة الامارة ، ويراه غلولا ، يطوق به آخذه يوم القيامة ، ويعاقب عليه العقاب الأليم كبيراً كان أو صغيراً ، بصفة مباشرة كالرشوة ، أو غير مباشرة كالهدية ، ورآه ، وهو يأخذ بيده وبرة من جنب بعير من الغنيمة ويقول « لا يحل لى من مغانمكم مثل هذه الا الخمس ، والخمس مردود فيكم » .

وما من شىء أعظم إيضاحاً لفهمه — أى أبى بكر — معنى القيادة وإيثاره الصفة العامة على الصفة الخاصة ، ومصلحة الشعب ، على القداسات المدعاة ، التى تهدر بها مصالحه من قوله فى موته لعمر « إنى لأرجو أن أموت

فى يومى هذا . فإن أنا مت فلا تمسى حتى تندب الناس مع المثنى . ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم . وقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت . ولم يصب الخلق بمثله ، ووالله لو أنى أنى عن أمر الله ورسوله لخذلنا وعاقبنا فاضطرمت المدينة ناراً » ووصيته لعائشة « أى أمة إنى اضطلعت بأمانة هؤلاء القوم حين كان النكوص إضاعة والخذل تفريطاً فتبلغت بصحفتهم وتعللت بدره لقحتهم وأقمت صلاتى معهم لا مختالا أشراً ولا متكاثراً بطراً لم أعد سد الجوعة ووارى العورة وقواتة القوام . فاضطرت اضطرار المريض إلى المعيف الآجن . فإذا أنا مت فردى اليهم صحفتهم وعبدهم ولقحتهم ورحاهم ودثارة ما تحتى بها نز الأرض كان حشوها قطع السعف » .

وكان أبو بكر قد طلب من بيت مال المسلمين « قوت » رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم . وكسوة الشتاء والصيف ، إذا أخلق شيئاً رده ، وأخذ غيره ومع هـذا الاحتياط من إعادة هذه « العهدة » فإنه منح المسلمين أرضاً كانت له . وأوصى أن لا يكفن فى جديد ، « فالحى أولى به » .

ولم يعرف التاريخ بأجمعه رجلا حريصاً على أموال الأمة فطناً إلى مزالق التصرفات ، ودخل النفوس ، محتاطاً للامر قبل وقوعه ، حاسماً له قبـل تفاقمه ، صريحاً فى ذلك كله ، كل الصراحة ، كعمر .

هذه صيحاته المدوية . ..

« ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده [وقريش وقت ذاك تمثل الأرستقراطية العربية] ألا فأما وبن الخطاب حى فلا . إنى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار » .

« أيها الناس ، إنى والله ما أرسل عمالى ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم وليقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل . فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلىَّ فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه » فإذا قال عمرو بن العاص « يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لتقصنه منه صاح «أى والذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه وكيف لا أقصنه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتص من نفسه » .

« والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد . والله ما من أحد من المسلمين إلا وله فى هذا المال نصيب ، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه » .

وثمة ناحية خاصة فى سياسة عمر توضح مدى فهمه لحقيقة القيادة وما يعتورها من مغريات ومزالق تزل فيها الأقدام الثابتة . وتتقلب فيها القلوب الراسخة . تلك هى عزله لكبار القادة والولاة عند ما تصل أمجادهم الذاتية إلى الدرجة التى تحجب فيها غرض الدعوة أو يخشى معها أن يختل التوازن بين الراعى والرعية ، القائد والشعب ، فيغتر القائد بقدر ما يُسلم الشعب ، حتى تنقلب العلاقة من علاقة تربط القائد بالشعب إلى أخرى تربط الشعب بالقائد ، وتكون تلك بادرة لعهد من الطغيان والتحكم ، وعمر مع ذلك يعتذر اعتذاراً لبقا ، لا ينتقص فيه من العبقرية الذاتية لهؤلاء القادة ولكنه يكره أن يحمل الناس على فضل عقولهم !

وهذا الفهم نفسه لكنه القيادة ، وواجب القائد هو الذى جعل عمر يسير بمرقعته ودرته . لقد كان يستطيع أن يصلح من مرقعته أو يستعيض عنها

خيراً منها ، ولكنه رأى أن يبرز ناحية موضوعية ، لا أن يعنى بناحية ذاتية ، وكلما زادت انتصارات المسلمين ، وتعددت أمورهم وتعقدت مسائلهم وقضاياهم ، واتسعت رقعة الوطن الإسلامى ، كلما تعددت واجبات عمر ، وكلما عظم إهماله لنفسه وزادت قسوته على نفسه وآله ، فهو يجمع آل الخطاب ويوعدهم ضعفاً من العقاب الذى يفرض على عامة الناس ، لأن الناس تنظر إليهم ، نظر الطير إلى اللحم ، وكلما عظمت امبراطورية المسلمين ، ولمس عمر إثارة من زهو تدخل قلبه ، كلما قابلها بإذلال جديد ، فهو يطلى إبل الصدقة ، ويحمل غرارة الدقيق ، وينفخ النار ، ويسرع بالنزول إذا أركبوه برذوناً : « انزلونى أنزلونى كاد العجب أن يهلكنى ! » .

وهو يطبق مثل هذه الطرق على قادته وأمرائه ، فيعطى الدرة لقبطى من مصر ليضرب به عمرو بن العاص « إضرب ابن الأكرمين » ويلبس عياض بن غنم — خال أبى عبيدة الجراح ووالى الجزيرة جبة صوف ويعطيه عصا ، وصرمة من الغنم ويقول له « ارع فإن أباك كان راعياً » .

وبين يدينا صورة لخطابين رائعين يصوران لنا كيف كان أبو بكر وعمر يحذران قوادهما من الغرور ، أو الادلال بعمل أو إبراز المعنى الذاتى ، فهذا أبو بكر يكتب إلى خالد بن الوليد الفاتح المنتصر غداة انتصاره :

« سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا ، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت . فإنه لم يشج الجموع بعون الله من الناس شجيك ، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك ، فليهنك ابا سليمان النية والحظوة فأتم يتم الله لك . ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل . وإياك أن تدل بعمل فإن الله عز وجل له المن ، وهو ولى الجزاء » .

وهذا عمر بن الخطاب يشيع سعد بن أبي وقاص قائد جيش القادسية ، ويوصيه « يا سعد : لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ، وصاحب رسول الله . فإن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته . فالناس في ذات الله سواء ، الله ربهم ، وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة » .

هذا الفهم لقداسة القيادة هو الذي جعل عمر بن عبد العزيز ، إذا أتى له بالثوب الخشن — وهو خليفة — يقول ما أنعمه وكان يقول قبلها إذا أتى له بالثوب الناعم ما أخشنه !

وهذا الفهم نفسه هو الذي جعل الإسلام يقرر « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » « ظهر المؤمن حمى إلا بحقه » « من ظلمه أميره فلا إمره عليه دوني » ، وبهذا يعطي الشعب حق الثورة ، ويجعله حقاً رسمياً وشرعياً إذا خالف القائد شرعة القيادة أو أخل بأمانتها . ذلك الحق الذي لم تصرح به حتى الآن الدساتير الحديثة إلا ما ندر كالدستور الأمريكي ، في اعلان الاستقلال (١) .

---

(١) مطلع اعلان الاستقلال الأمريكي في ٤ يوليه سنة ١٧٧٦ « إن جميع الرجال مخلوقين متساوين ، موهوبين من الخالق بحقوق معينة لا يمكن المساس بها ، منها حق الحياة ، والحرية ، والكسب ، وانه لتأمين هذه الحقوق تقوم الحكومة بين الناس مستمدة قوتها من موافقة المحكومين . وأن أي شكل من الحكومات ينقلب هداماً لهذه الغايات . فإنه حق الشعب أن يغيرها أو يزيلها ، وأن يؤسس حكومة أخرى » « تاريخ أمريكا السياسي والاجتماعي هارولد اندرود فلكنر » .

— ٥ —

كيف ينقلب القادة دعاة انحلال

إذا كان الأمر كذلك . وإذا كان القرآن قد أظهر الأنبياء والرسل مبلغين ، ومبشرين ، ومنذرين ومكلفين بأن يهبوا الدعوة حياتهم ، ومماتهم « إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » فمن الطبيعى أنه يتطلب فى القادة الأسوة والاتباع ، ويرجع مسئولية الانحلال فى معظم الحالات إلى مخالفة هذه القاعدة الأساسية الكلية للقيادة ، قاعده أن القائد ، وسيلة لا غاية . وأن مهمته موضوعية بحته لا أثر فيها للذاتية ، فهو لم يوجدها إيجاداً بحياته ولم يمتها بموته ، وإن تقلده لمنصب القيادة لا يمنحه حقاً ذاتياً ، وأن كل دقيقة من وقته المكرس للدعوة ، وكل درهم يختلسه من مال الناس ، إنما هى خيانة وغلول ، وأن كل تعد لواجباته ، تفقده الصلاحية . وتمنح الشعب حق الثورة عليه ، بل توجب ذلك على الشعب إيجاباً ، كما سنرى فى الفصل القادم .

وكل الشواهد التاريخية تؤيد ذلك . وتنطق بأن الذاتية هى لعنة القيادة . وأنه فى اللحظة التى يتحول فيها القائد من الموضوعية إلى الذاتية . ينقلب من وسيلة إصلاح إلى وسيلة إفساد . فإذا كان فى الأولى حارساً على الأموال فإنه يصير ناهباً للأموال يسطو على أموال الدولة ، ويتحايل على ثروات الناس . ويرى فى الأوقاف والحبوس وما أشبه من الأموال العامة لقمة سائغة . ويبخس الحقوق أو ينتقصها نظير الرشا والهدايا . وإذا كان فى الأولى حاقناً للدماء . حفيظاً على المهج والأرواح ، انقلب سفاكا للدماء . يسعد برؤيتها

تجرى وينتشى بمشاهدة الآلام ، وسماع الأنات . وبدلا من أن يكون كعمر ابن الخطاب يرى أن سلامة جندى إسلامى واحد بالدنيا وما فيها يكون كامبراطور رومانى يتلذذ بموكب الأسرى يحيه فى « الكولزيوم » وهو ذاهب ليحارب بعضه بعضاً حتى الموت ! أو يقابل الوحوش المفترسة . أو يأمر بحرق آلاف من الأسرى لكى يضيئوا له موكب النصر ، وبدلا من أن يرى القائد نفسه وسيلة لغاية هى خدمة الشعب يرى نفسه الغاية والشعب وسيلة . وتظهر الأوضاع والقوانين التى تحقق هذه الفكرة فيرفع نفسه فوق الناس منازل قد تصل إلى الألوهية ! وتخفض الشعب إلى درجة العبيد ، ويكتسب آل القائد وعشيرته منه هذه الميزات فيكونون مثله ، أو أدنى قليلا ، وينال الأتباع والحاشية رشاش من الرفعة ، فتوجد لهم درجات يستطيعون منها أن يطأوا الطبقات التى تحتهم ، وتلين القوانين للصفوة المختارة بحيث تمنحهم كل المزايا ، وتقسو وتضيق على العامة حتى تكدس عليهم الأثقال أكداساً ، وتغدو كلمة القائد قانوناً ، ويظهر المثل القائل « كلام الملوك لايرد ! » .

وأنك لترى القرآن يشبع هذه الناحية ، ويبدىء فيها القول ، ويعيد ، ويشير إليها مرحلة مرحلة . منذ أن يخطأ القائد فيرى لنفسه خاصة — شيئاً ثم تتملكه الأثرة ، وينتابه الغرور ، ثم يندفع إلى التحكم والاستبداد بقوة الغرور من ناحية ، وإغراء الإستسلام من ناحية أخرى « استخف قومه فأطاعوه » حتى يغلظ أمره ، وينصب نفسه إلها يعبد !

وكما أظهر القرآن الأنبياء أمثلة حية للتجرد من الغرض والتفانى فى الدعوة ، والتواضع الكامل ، والموضوعية الشاملة فإنه يظهر هنا الشيطان ، مثلا صارخاً من أمثلة الذاتية والأنانية كل دعواه ، انه من نار ، وأن آدم من طين ، وتبرز خلال هذه الدعوى الوحيدة ، « انا » الملعونة ، وتسيطر على

الموقف فتجعله يفسق عن أمر ربه . وما من صورة هى أعظم تمثيلا لقوة الذاتية العمياء ودفع الأنانية والأثرة الطاغى من هذه الصورة التى يرسمها لنا القرآن ، ويوضح لنا فيها ملا كا كبيراً تفسده هذه الصفة المقيتة إلى الدرجة التى تجعله يفسق عن أمر ربه ، ويخرج عليه وهو الذى يعرف قوته وجبروته حق المعرفة .

— ٦ —

مسئولية القادة الايجابية عن الانحلال : الطغيان

* قوة الدافع الذاتى والغرور والأنانية .
* إذكاء جذوة التزلف والتملق من الحاشية والموافقة الدائمة على الخطأ والصواب .
* أثر الأساطير التى يلفقها الكهنة والصنائع حول عراقة الأصول ، وقداسة النسب . وامتياز الدماء . واستحقاق المولود الملكى للرئاسة والولاية .
* استسلام الشعب إما عن استغفال أو عن عجز أو عن جهل أو عن غير ذلك .

هذه العوامل القوية التى تتكرر جيلا بعد جيل تتركز فى نفوس القادة وتصل آثارها إلى أبعد ما يمكن أن يصل اليه الدافع الذاتى ، ألا وهو تأليه النفس ، ومطالبة الناس بعبادتها .

وليس لنا أن نعجب — ما دام الدافع الذاتى وما يحيط القادة من إغراء يصل إلى هذه القوة — إذا راجعنا صفحات التاريخ فوجدنا عبادة الأبطال والملوك والفراعنة والأباطرة مسودة لصفحات القديم منه فى أربعة

أركان العالم ، والخضوع للملوك والزعماء والقادة ، خضوعاً يقرب من العبادة ، مسودة لصفحات الجديد منه ولا سيما فى الشرق .

بل إنه لا يحق لنا أن نعجب لما هو أكثر من ذلك . فالقرآن يوضح لنا أن الأنانية بعد أن تبلغ من الطغيان فى نفس صاحبها الدرجة التى تجعله يطالب الناس بعبادته ، تستولى شيئاً فشيئاً على نفس صاحبها حتى تجعله يعتقد أنه بالفعل إله . وقد ضرب القرآن المثل بفرعون مصر ، ونمرود بابل ، وصور مزاعمهما ونفسيتهما ، ونقل أقوالهما . فهذا فرعون مصر يقول : « أنا ربكم الأعلى ! » ويتوعد موسى : « لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين » ، ويعجب من هذا الإله الجديد الذى يبشر به موسى ويظنه كاذباً : « يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى . فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين » !

وهذا نمرود العراق يكابر : أنا أحيى وأميت ! ولا يفحمه ابراهيم إلا عند ما طلب إليه ما هو فوق قدرته ، كانسان ، وملك : أن يأت بالشمس من المغرب إلى المشرق !

والتاريخ ، بعد القرآن ، يحدثنا عن عشرات من الملوك والقياصرة والأبطال عبدوا ، وألهوا ، وظنوا فى أنفسهم بالفعل الألوهية . وأغلب الظن أن الاسكندر ، على رجاحة عقله ، كان يرى أن أمه « أوليمپياس » إنما حملت منه أثر مخالطة الإلهين العظيمين زيوس وآمون !

وحل هذه الظاهرة العجيبة ، ظاهرة تصديق هؤلاء الناس فيما بينهم وبين أنفسهم ، لزعم كهذا واضح البطلان والفساد ، ومنحهم لدواتهم صفة لا يجدون من قواهم لها سنداً ، أو دليلا ، هو مما يلقى بضوء عليه ، علم النفس الحديث الذى يوضح لنا أن ثمة أنواع من الهوس الجزئى تتعلق بناحية خاصة ولا تنتقل

إلى غيرها فالبارانويا « جنون العظمة » تشمل ناحية واحدة فحسب ، والمصاب بها موهوم فيها ، وسليم فى غيرها . ويفسر لنا مؤلف « عقلى وعقلك » تلك الناحيـة فيقول : « إننا نلتقى بناس كثيرين يعيشون فى المجتمع ويستمتعون بالكرامة والوجاهة ، أو الثراء والمراكز . تجادلهم فتجد العقل المتزن ، والاهتمامات السياسية أو الاجتماعيـة ، لهم عائلات يعولونها وأولاد يهتمون بمستقبلهم ، وغير ذلك مما يدل على الحياة السوية الخالية من الشذوذ . ثم تفاجأ يوماً بأن هذا الوجه الذى كنا نعرف فيـه أخلاقاً سوية واتزاناً نفسياً ، بل روحاً كريمة ، قد ضبط فى جريمة الشذوذ الجنسى مع صبى قاصر ، ثم تثبت التحقيقات أنه عريق فى هـذه الجريمة التى مارسها منذ عشرين أو ثلاثين سنة ، وأن له عادات بشعة فى الشذوذ الجنسى مع الصبيان . وقد استطاع طوال هذه السنين أن يخفى جرائمه لأنه لا يزال متمتعاً باتزانه يستطيع التفكير الحسن ثم نجد لغيره شذوذاً آخر مع البغايا ، كأن يضربهن ويؤلمهن بما يسمى السادية ، أو يطلب هو أن يضربنه ويؤلمنه بما يسمى المازوكية .

ونجد غيره يميل إلى الجنس الآخر ويتكلف التكاليف الباهظة كى يصل إلى غايته حتى ولو اقتضت هذه الغاية خيانة أصدقائه وتعرض عائلاتهم للتشتت عند ما تنفضح علاقاته الجنسية . وهو يجرى وراء غايته كأنه فى حمى .

فهؤلاء جميعاً وأمثالهم يسلكون سلوكا عادياً ليس فيه ما يلفت النظر . عواطفهم عادية ليس بها كرب أو ضيق . وتفكيرهم سليم ليس فيه خيالات جنونية . ولكنهم فى ناحيـة معينة ، يخفونها عنا — أو لا يخفونها — يسلكون سلوكا غير اجتماعى يؤذى الناس أذى عظيما .

وأول ما نجد من الصفات عند هؤلاء الشاذين مما يفتح بصيرتنا إلى تفهم حالتهم أنهم غارقون فى ذاتيـة مسرفة ، فشعارهم أنا ، أنا ، أنا ، يبغون

النجاح ، وأحياناً يتفوقون وليس للغير أية مكانة فى حسابهم وهم على استعداد لأن يدوسوه ، وصفة أخرى تلازمهم هى الاندفاع وجحود العقل . وصفة ثالثة هى نقص الاتزان الأخلاقى والاجتماعى . فالقيم والأوزان الاجتماعية لا تحتل مكانها فى نفوسهم فلا يبالى الرئيس السيكوباتى أن يفصل الفراش من وظيفته لأنه أهمل إهمالا بسيطاً . وأولاد هذا الفراش وزوجته ليس لهم مكان فى نفس هذا الرئيس . وصفة أخرى هى أن هؤلاء السيكوباتيين لا يعرفون هدفاً للحياة فهم يعيشون جزافاً وحاضرهم يغمر كل شىء وليس للمستقبل عندهم قيمة كبيرة .

والآن اعتبر أيها القارىء هذه الصفات كلها : ذاتية مسرفة تقول فى كل شىء أنا ، واندفاع بلا تعقل ، ونقص فى الاتزان الأخلاقى الاجتماعى ، وانعدام الهدف للحياة وإيثار الحاضر » .

ومن الواضح أن هذه الصفات تتحقق أكثر ما تتحقق فى أبناء الملوك والقادة والمترفين بصفة عامة .

والمهم فى هذا كله أن فتح الأبواب لنوازع النفس الذاتية ، يمكن أن يصل بها إلى حد اعتقاد الألوهية . أو على أقل تقدير الإيمان بحق الحكم المطلق ، أو ما نسميه نحن الطغيان ، وما نظن أن هناك من يختلف معنا فى أن الطغيان من أقوى أسباب انحلال الأمم ، وقهر الشعوب وجمود الأوضاع ، وإبقاء الكثرة الكثيرة فى ظلمات الجهل والفاقة ، حتى لا تفضل الحيوان الأعجم الكادح ، الذى يسيره سيده كما يشاء .

صور القرآن هذا الطغيان عند ما تحدث عن الملوك ، وكيف يجعلون الأعزة أذلة « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة

وكذلك يفعلون » وأشار إلى ذلك الملك الذى يأخذ كل سفينة غصباً ، وشرح فى آيات عديدة مظالم فرعون ، وطريقته الجائرة فى الاستبداد بالناس وتحطيم مقاومتهم وتفريقه بينهم ، وتسليطه طائفة على طائفة ليضمن لنفسه الفوز والانتصار .

« إن فرعون علا فى الأرض . وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين » .

ولنلحظ فى ناحية أخرى ، أثر نوازع النفس الخاصة وأطماعها الشخصية عند ما تتمكن من فؤاد القائد ، وتملك قلبه ، وتسير القضية العامة تبعاً للهوى الخاص .

هذه معركة ، وليس كالمعارك ميداناً تبلغ فيه التضحية غايتها ، وتتحدر الذاتية وتنزل إلى أقل درجاتها ، والحرب سجال بين المؤمنين والكافرين . ولكن خبراً كاذباً يثقب الأذان : لقد قتل رسول الله ، وهذه الإشاعة تفعل فعلها فى نفوس المسلمين ، تظهر كل فرد على حقيقته ، كبار المؤمنين يستميتون ، ويثير فيهم الخبر نكران الذات ، ويتساءلون « قتل رسول الله ، وما نفعل بالحياة بعده » وكبار المنافقين يعلوهم الروع ، ويركبهم التردد ، وتطفر الأطماع حتى تغطى جو المعركة ، والتضحية والفناء ، وتصم الأذان فلا تسمع صليل السلاح . وتعمى العيون ، فلا ترى دماء القتلى . وتطمس الضمائر ، فلا ترى الرجال يحاربون ويقتلون فى سبيل المبدأ المقدس ، ويستولى عليهم شىء واحد فحسب ، اهتمامهم بأنفسهم ، لا بنجاتها ، وإنما بالاستفادة من هذه المعركة . من الانتفاع وراء القتلى والجرحى نفعاً شخصياً ، وهم الآن أشد ما يكونون طمعاً فى أن يخلفوا محمداً ويرثوا مكانه . ولكن لا يلبث أن يتبين كذب الخبر ، فيؤخذون ، ويفثأون غيظهم بالتنديد

بقتل من قتل ، والادعاء أن لو كان لهم من الأمر شيء « المسألة التى لا تنسى هنا أيضاً . والتى هى أصل كل شيء » ما قتل من قتل ! والله يعلم أن لو كان لهم من الأمر شيء ، لأوقعوا بالجيش الهزيمة ، ولأسرعوا بالاستسلام ولباعوا النصر ، والجنود ، والشرف فى سبيل سلم يعطيهم الرئاسة الهزيلة المذلة ، من يد العدو ، وعلى جثث القتلى ، ولوقعت عليهم مسئولية الانحلال .

والتاريخ حافل بأسماء قادة انخذلوا عن جيوشهم قبيل الانتصار لوعد مناهم به العدو ففضلوا خسة الخيانة . . . على رفعة الأمانة . لقد خان « بلطجى باشا » الترك فى سبيل رشوة مالية وغرامية من كاترين ! فأفلت الجيش الروسى وعلى رأسه بطرس الأكبر بعد أن تقطعت به الأسباب . . . وانتفت منه الأمال ، وأنقذه من الهلاك الحقق ، ليكون العدو الأكبر لتركيا . وقد خان خيرى بك ، قائد الغورى ، الجيش المصرى فى موقعة مرج دابق ، فسلم للترك ، وأصبح أميراً على مصر . . وخان صنائع الخديوى توفيق عرابى ، فقادوا الانجليز ، فى مذبحة التل الكبير . . . لينهوا الاستقلال ، وليبدأوا الاستعمار ، وماذا يضير « سعود » ، و« خنفس » ، و « سلطان » وأمثالهم ذلك ما دامت الرشوة جنيهات ذهبية صالحة للتداول عليها رسم القديس جورج !

ذلك كله ، لأن شيطاناً هجس فى نفس هؤلاء القادة « هل لنا من الأمر من شيء . . ؟ » وارتفع ، ودوى حتى غطى جو المعركة ، وأخرس صوت الضمير . . . فأصبحت المعركة صفقة تجارية ، إنهم يستطيعون قبض الثمن الذى يجبون بحركة واحدة ، فيالها من صفقة !

- برزت الأنانية والذاتية ، فى أعظم ميادين الفداء والموضوعية فحقت الهزيمة .

هكذا يصور القرآن الموضوع « وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر من شيء ، قل إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا » .

— ٧ —

مسئولية القادة السلبية عن الانحلال

رفضهم الدعوات الاصلاحية وضررها

وفى الناحية السلبية نلمس أثر الذاتية فى رفض القادة لكل الدعوات الجديدة وصم الآذان عن سماعها ، ومحاولة عرقلة تقدمها بكل الطرق ، وهو التصرف المنتظر الذى يمليه عليهم كلا من الحرص والعجب ربيبى الذاتية المسرفة: الحرص الذى يجعلهم يتشبثون بوضعيتهم الممتازة التى تمنحهم خصائص ومزايا ليست لغيرهم — لا يريدون لها انتقاصاً ، ولا يبغون عنها حولا . والعجب الذى يجعلهم يحصرون فى أنفسهم وذواتهم كل شيء ، ويرفضون كل خير يأتى عن غير طريقهم أو يعود أثره على غيرهم . فإذا قام رجال ونساء من سواد الشعب بدعوة إصلاحية لأية ناحية من نواحى الحياة ، فهذه الدعوة مرفوضة مقدماً ، ومرتين : مرفوضة مرة لأن الإصلاح العام لا يعنيهم ، بل هم يخافون أن يحيف عليهم ، وينتقص منهم ، ويظهر الفساد فى زعمهم « ذرونى أقتل موسى وليدع ربه . إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ! » .

وهى مرفوضة مرة أخرى لأن هؤلاء القادة الأنانيين لا يستطيعون أن يتصوروا أن يقوم بدعوات إصلاحية ، رجال ونساء من عامة الشعب

ونسائه ! . واحتكارهم لكل ما هو نفيس وطيب يجعلهم يرفضون الإيمان بدعوة يقوم بها غيرهم كائنة ما كانت ! ويظنون أن كافة الرسالات ، إنما هى وقف عليهم — حكر لهم — « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ! » « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ » « وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذى بعث الله رسولا » « لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ . » «وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون . . وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين » « أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه . . ولم يؤت سعة من المال ... » « أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر » .

فإذا أرادوا أن يتهربوا من تبعة الذاتية هذه ، لاذوا بما لا يعد مهرباً منها ، ادعوا أنهم يتبعون آباءهم ، ولا يقبلون تغييراً ولا تبديلا لما وضعه هؤلاء الآباء المقدسون ! « إنا وجدنا آباءنا على أمة . . وإنا على آثارهم مهتدون . . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة . . وإنا على آثارهم مقتدون . . قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم . . قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون » « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله . . قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباءهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون » « قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض . . » .

ومن الواضح ، أن هذه الأقوال نفسها مفعمة بآثار الذاتية والأنانية ،

الخافية والمعلنة ، فى المعنى وفى المبنى ، فهم يظنون أن الرسل تأتى لتلفتهم عما وجدوا عليه آباءهم ، ويبنون على هذا أن تكون لهما الكبرياء ! .

وهذا ما ينم على أنهم إنما يتمسكون بتراث آبائهم لأنه يذلل لهم أعناق الناس ! ويمكن لهم من الكبرياء ، وهو ما يفسر ، مجابهتهم الأنبياء بالرفض بعد أن يعرضوا عليهم ما هو أهدى مما ترك آباؤهم ، فهو تحايل على تحقيق فكرتهم الاستثمارية . وتقديس الآباء بعد ذلك تنفيذ للذاتية وربط بين الذات ، والموضوع ، بل تعليق الموضوع على الذات ، تعليقاً يؤدى إلى تأليهها[1] ! وعبادة الآباء والأجداد فى نظرنا أقبح أنواع الوثنيات لأنها تجسيم بشرى ليس فيه أى رمزية ، والكفار الذين يتعللون بآبائهم ، المحترمين المقدسين ، بين أمرين الأول أنهم ينفذون الذاتية لحسابهم الخاص . وما الآباء إلا ستار ووسيلة وادعاء ، والثانى أنهم ينفذونها ، لحساب آبائهم ، ففى كلتا الحالتين هناك تنفيذ لذاتية القيادة . والانتفاع من هذا التنفيذ — فى الحالتين أيضا — يعود على أصحاب هذه الدعوة ، ما دام آباؤهم قد ماتوا ، وهم الورثة !

ولغلبة الذاتية على نفوس هؤلاء القادة . فإن فكرة الصحة والأفضلية التى تلتزم الإيمان أو التبعية لا تقوم فى أفهامهم على موضوع ، ولا على صحة هذا الموضوع ، وانما تقوم على الأشخاص وصفاتهم الذاتية وأوضاعهم المادية من جاه أو نسب أو ثروة ، أو رواء . ولما كان الأنبياء والمصلحون عادة من أوساط الناس وفقرائهم ، ولما كانت ميزاتهم ميزات موضوعية كالصلابة ،

---

(١) يرى العلماء أن تقديس الآباء كان الأصل الذى عنه نشأت عبادة الآباء ، ثم الأوثان ، ومن أجل هذا حرم الاسلام تقديس الآباء والأجداد تقديساً دينياً واستنكر الحلف باسمهم . وحذر من بناء القبور المشيدة أو التماس الشفاعة أو غير ذلك من الحبائل التى تقود إلى الشرك .

والأمانة ، والشجاعة ، والإخلاص ، فإن هؤلاء القادة يرفضون دائماً هذه الدعوات . وبينما يدعوهم الأنبياء على أساس موضوعى هو أنهم على بينة ، كما قال صالح « قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى » ، أو يناشدونهم كتاباً ، أو هدى ، أو علماً ، أو حتى « أثارة من علم » « إيتونى بكتاب قبل هذا أو أثارة من علم ، إن كنتم صادقين » اذا بهم يرفضون بحجة أن القائمين على هذه الدعوات أناس من عامة الشعب وأتباعهم من سواده ، وترتسم علامات الدهشة العميقة عند ما يدعوا إلى الإيمان على يد هؤلاء ويتساءلون .

« أنؤمن لك ؟ واتبعك الأرذلون . . . » .

« أنؤمن كما آمن السفهاء . . . » .

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا . وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادىء الرأى » « أنى يكون له الملك علينا ، ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال » « قالوا يا شعيب ، ما نفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رهطك لرجمناك » .

فكأن الدعوة أو الرسالة ، نادياً عاماً يتحامونه ، إذا دخله الفقراء ، ويأنفون من غشيانه ، ويرفضون أن يدعوا إليه ، لا سيما وألفاظهم عن سواد الشعب وفقرائه تنم عن مدى احتقارهم له .

وهذا لا يمنع من أن تذيب الأطماع هذه الارستقراطية المدعاة كما تذيب النار معدنا خسيساً ، وتعيدها إلى أصلها النفعى الصغير ، فيلتمس هؤلاء القادة المترفعون الأرباح المادية من سوق الدعوات ، ويطلبون من النبى مقدماً ، وعداً ونقداً ، ثمن إيمانهم ، تنفيذ مطالب مما يطلبها الناخبون من المرشحين كإقامة كوبرى أو إنشاء سوق أو مد المياه إلى الدائرة أو وصلها بالسكة الحديد ... الخ .

« وقالوا ما لهـذا الرسول يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذير أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها . وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً » .

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف . . . الخ » .

وأغلب الظن أن تقديمهم هذه المطالب لايعنى استعدادهم الاذعان جدياً لو تحققت لأنهم فى أكثر الحالات يفجأون الرسل بزهدهم فيهم ، وعجزهم عن فهمهم ، «سواء علينا أوعظت أو لم تكن من الواعظين » « لا نفقه كثيراً مما تقول » « قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » أو يطالبونه بكتاب جديد كأنه هو الذى يقرر هذه الكتب — كما يقررون هم افتياتاً على الناس . ومخالفة لأصول القيادة — مصاير الشعوب « ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى أن أتبع إلا ما يوحى إلى » .

ومع ذلك فإن ذكر القرآن لمطالبهم السابقة من الأنبياء . من كنز أو جنة ، أو تفجير الأنهار أو بيت من زخرف يعرض لنا التصورات الصغيرة لهؤلاء الناس عن الدعوات وتفكيرهم الضيق المحدود . وآمالهم المادية ، وارتباط الناحية الذاتية والمادية بالعقيدة .

والعلامة الوحيدة التى تبدو وكأن فيها لمحة من التفكير ، أو اثارة من موضوعيه ، هى تساؤلهم عن البعث بعد الموت ، وعجبهم منه « أإذا متنا

وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ، أوآباؤنا الأولون » « أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً » .

ولكنهم فى الواقع لا يصدرون ذلك عن تفكير ، لأن القرآن قد دفع الحجة بالحجة ، ووضح لهم بالأمثلة والبراهين صحة ذلك فلو أن عجبهم كان علامة تفكير لسلموا للمنطق القوى والحجة البالغة ولكنهم يصدرونها عن استهتار وسخرية وجمود على ما هم عليه من الوضعية الممتازة التى تتيح لهم السعادة والملاذ فهم لا يريدون لها تغييراً . ولا يبغون حياة أخرى لا يعلمون حظهم فيها . أو تقتضيهم الراحة فيها أداء الواجبات الدينية . ولما كانوا قد بلغوا الغاية التى يطمع فيها المؤمن فى الجنة ، فهم لا يرجون وراء الموت شيئاً آخر وإن كانوا يعملون وسعهم لتأخيره حتى يستمتعوا أطول مدة ممكنة بسعادة الرئاسة وما تتيحه لهم من بلهنية وسعادة . ويصل استغراقهم فى عالمهم الذاتى ودائرتهم الطبقية إلى الدرجة التى تجعلهم يرون حقائقها المزيفة بديهيات صادقة فيرفضون التفكير فيها ، كما رفض الألى التفكير فى كروية الأرض أو دورانها حول الشمس ، وهذا وذاك من استهتار وجمود يدلان على تأصل الذاتية لأن الانسان لا يجمد على ما هو عليه ، ولا يستعظم ، ما ليس هو فى الحقيقة عظيما إلا لأنه عاكف على نفسه ، منصرف اليها ، زاهد فى كل ما عداها من معرفة خارجية أو ثقافة عامة طالب — فحسب — للنوع الذى يهواه ، والذى تميل اليه نفسه ، لا الحقيقة حيثما تكون وأياً ما تكون .

وهكذا يتضح لنا أن الاثارة الوحيدة التى تبدو وكأنها تفكير ، أو تساؤل موضوعى إنما هى أثر من آثار الذاتية وما يحوطها من جهل وجمود واستهتار .

وقد يظن القارىء أنهم لتفكيرهم المادى يؤمنون عند ما تفحمهم المعجزات

أو — بالأصح — يسلمون ، لأن الذى لا يؤمن إلا بمعجزة إنما يكون مأخوذاً بحجة مادية وبرهان معجز ، ومرغم من قبل حواسه على الإيمان ، ولكن الأمر لدى هؤلاء القادة غير ذلك فهم يطلبون المعجزات ، تعجيزاً . فإذا حققها لهم الأنبياء ، وتمت أمام أعينهم واستيقنتها أنفسهم جحدوها ، ورفضوا التسليم بها ، بل وهم فى حالات أخرى يرفضون مقدماً كل معجزة مهما بلغت من الروعة والإعجاز ، فإذا تتابعت فلا يعدمون الوقاحة والمكابرة التى تجعلهم يقولون « سحر مستمر ! » .

* وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها ما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا ، وكانوا قوما مجرمين .

* وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم ، وكل أمر مستقر .

* ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون .

* فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين .

* ولو انزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين .

* ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله . ولكن أكثرهم يجهلون .

* وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها . وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا . وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا . وكانوا عنها غافلين .

ولم يكن التكرار فى إيضاح هـذا المعنى عبثاً من القرآن فهو يريد أن يوضح لنا مدى التعنت الذى ساقهم إلى الغرور والاستغراق والجمود .

هذا التعنت والاستحالة التى قطع بها القرآن توضح لنا أنهم أولا وآخراً لا يريدون الهداية ، ولا ينشدون الحكمة ولا يبتغون الأدلة على صدق الرسل ، وإنما هم يريدون أنفسهم وحدها . وما دام الأنبياء لا يؤيدون هذا الدين الوثنى الشخصى — عبادة النفس — فإنهم رافضونهم ، ومعجزاتهم ، يفضلون أن تسقط السماء عليهم كسفاً أو تمطرهم حجارة ، ويموتوا ميتة الكبراء المكابرين على أن يعيشوا عيشة المؤمنين المسلمين !

بل إنهم أكثر من ذلك على اعترافهم بالخطأ عند تكشف الحقيقة الرهيبة يوم القيامة . وندمهم أمام العذاب الأليم . فإنهم لو ردوا إلى مثل حياتهم الأولى لعادوا إلى ما كانوا عليه ! وبعد أن كان القرآن يوجه الخطاب فى تساؤل « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » فإنه يجزم فى آية أخرى « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه . وإنهم لكاذبون » .

وليس هناك ما هو أقوى تصويراً لسيطرة الوضع على الفرد من هذا الفرض الذى يجزم به القرآن ، ويوضح لنا به أن الأمر فى الحقيقة ليس مسألة إرادة بشرية . لأن الإرادة البشرية — فى الأغلب الأعم — تتأثر بالوضعية المادية والاجتماعية والسياسية التى تحيط بها .

وليس معنى ذلك إعفاء أشخاص الأفراد من المسئولية لعدة أسباب منها

ما ذكرناه فى الفصل السابق عن المسئولية من كفاية الفطرة الإنسانية لمعرفة الخير والشر لو لم يفضل الانسياق فى تيار الشهوات . ومنها أن الفرد يتفاعل مع الوضع . فقد يكوِّن القادة أوضاعاً ، وهذه الأوضاع نفسها هى التى تكيف الأجيال التالية من القادة . كما أن الأوضاع إذا كانت المكيفة دواماً ، فإن هذا يخلق نوعاً من الحصانة والمناعة ضد تكييفها .

— ٨ —

طوائف أخرى من القادة

تعرض القرآن لطائفتين من القادة ، ليسوا ملوكاً ولا أمراء ، ومع ذلك فلولاهم لما كان تدبير الملوك محكما ، ولا إفسادهم شاملا .. هما : رجال المال .. ورجال الدين .

ومن العسير أن نفصل بين مسئولياتهم فى الانحلال أو أن نفاضل بين أنصبتهم فيها ، فهم جميعاً يمثلون القيادة ، وقد رمز إليهم القرآن بفرعون وهامان وقارون وهو تمثيل بلغ غاية الإعجاز لأن المجتمع الفرعونى القديم لم يكن أول المجتمعات العريقة التى ظهر فيها تماسك هذا الثالوث فحسب بل إنه أيضاً كان المجتمع الذى وصل فيه ضغط الأمراء والأغنياء والكهنة غايته ، حتى أمكن تشييد الهرم الرمزى للمجتمع المصرى .

ومع أن اتفاق جبهات القيادة الثلاث هو أمر مشاهد فى كل المجتمعات ، إلا أن ظهوره كان فى مصر القديمة أشد توثقاً وتمكناً . فلما كان الفرعون ممثلا للآلهة ، بل هو نفسه إلهاً ، فقد كان فى حاجة دائمة إلى الكهنة ليصوغوا الأساطير التى تخدع الناس ، وتزيف عليهم العقيدة وتستغل سذاجتهم أسوأ استغلال . وتطلع عليهم كل آونة ، من الأساطير والتقاليد ،

والتحليل والتحريم ، بجديد يحفظ القديم ويقيم الرث ، ويبدد ما عسى أن يكون قد نجم من شكوك أو شبهات ، وقد قام الكهنة بذلك خير قيام من وجهة نظرهم ، وشر قيام من وجهة نظر الشعب ، لأنهم جعلوا محور عملهم الابتزاز بشتى الأسماء الكهنوتية من هبات أو أوقاف أو نذور أو قرابين أو ضحايا أو غير ذلك مما كانت بطونهم ، وبيوتهم هى مآلها .

وكان الفرعون من ناحية أخرى ، وبمقتضى الإرادة الرحيمة العادلة للاله آمون ـ رع ، مالكا كل رقاب الأحياء ، وكل الشعوب . وكل الأرضين التى تغشاها دورة الشمس ! فلم تكن أرض مصر كلها إلا جزءاً من ثروته ، ولما لم يكن يستطيع أن يستثمر هذه الثروة بنفسه فإنه وكل استغلالها إلى قارون وأمثاله ليستغلوها له (وهو يماثل الملتزم فى العهد الوسيط . ومتعهدوا الحكومة فى العصر الحديث) . ووجد هؤلاء — فيما بينهم وبين أنفسهم — إنهم يستحقون جزءاً — يتسع حسب ذمتهم — من هذه الثروة التى شاءت إرادة الإله الرحيم آمون رع ، أن تكون خالصة للفراعين ، فتكونت لهم من الفتات ، والاختلاسات والإضافات على الفلاحين ، ثروات ضخمة وهكذا تلاءمت أطراف المثلث . وحبكت خيوط المؤامرة ، وألقيت الشباك على الشعب المسكين من ثلاث شعب ، فالملوك ومن يتبعهم من أمراء ونبلاء الخ ، يحكمون بقوة النظم الإدارية والسياسية . والأغنياء يمدونهم بالوسائل والإمكانيات التى يتيحها المال . والكهنة يضعفون مقاومة الشعب ويتصرفون هدماً وتخريبا فى روحه المعنوية ويكبتون إرادته وحريته بشبكة الأوهام والخزعبلات ، والأساطير ، وبمضى المدة امتزج العمل الاستبدادى بعضه ببعض وأصبح لكل واحد من هؤلاء ثلاث صفات ، فالأمير ، كاهن وغنى . والكاهن ، أمير وغنى . والغنى كاهن وأمير .

على هذا المنوال ظهرت كل الحكومات ، على اختلاف يسير فى نسب الاستغلال ودرجاته ، وسار ركب البشرية ، مكدوداً مرهقاً تقيد خطوه القيود ، وتثقل كتفيه الأحمال والأعباء والأوزار مما أبطأ تقدمه ، وقصر خطواته ، وما أكثر ما يضيق الباحث التاريخى الذى لم يلم بهذه الأوضاع ، بالبشرية قاطبة ، ويحكم بأن الإنسان حيوان بليد غبى ، ويتساءل كيف أنه لم يستطع بعد جهد آلاف السنين أن يبلغ تقدما حقيقيا ، وكيف أن تسعة أعشار الشعوب لا تزال قطعانا بشرية جاهلة فقيرة بلهاء ، تمتص خيراتها فى السلم وتسفك دماؤها فى الحرب وتساق كما يساق القطيع .

ذلك أن الإنسان لم يتحرر من وحشيته وفرديته إلا ليستعبد لما يبدو شراً من الوحشية الأولى ، والفردية البدائية . سقط بين أنياب المجتمع المفترس وحاطته قوانينه ونظمه كأيدى أخطبوط عاتى ، فأصبح هو نفسه ضحية ، بعد أن كان مضحياً . ومجنياً عليه بعد أن كان جانياً ! ووسيلة بعد أن كان غاية ، ووجهه ثالوث القيادة وجهة التقدم الجماعى ، وعمل على أن يركز هذا التقدم فى الميادين الجماعية لأن ذلك هو السبيل الوحيد الذى يستطيع به القادة الهيمنة عليه ، وبالتالى استثماره ، فظهرت الدول بميزانيات ضخمة وجيوش لجبة ، ومصانع هائلة ، وقوانين مفصلة دقيقة ومعابد ممردة شامخة ، ولكن ما قيمة ذلك كله للأفراد ولعامة الناس ؟ إنها تهم بالدرجة الأولى القادة الذين يهيمنون عليها ، ويقطفون ثمراتها ، ويشرفون على توجيهها فميزانية الدولة خزانتهم ، وجيوشها حرسهم ، ومعابدها مقابر خيلائهم ، وقوانينها وسائل بطشهم المشروعة ، ومصانعها طرق الإثراء السريع . حتى المدارس عندما تخضع لهذا التركيز تصبح محاضن بشرية لإعداد العبيد ، والخدم والحشم والأتباع والموظفين ... وحشو المدافع .

إن الشعوب فى عصرنا الحاضر ، تشبه على أحسن الفروض أصحاب الأسهم فى شركة مساهمة ، فهم يدفعون ثمرة كدهم وجدهم السنين الطوال ، وادخار عمرهم كله وذخرهم الذى يعدونه للشيخوخة ، لأيد لا يعلمونها ، بقوة الائتمان وبالثقة فى الأسماء المشهورة ، وبعدها عن مظان الريب دون أن يخالجهم الشك فى أنه — كما يقول المثل — « القط على باب الكرار » ثم يدعون كل سنة مرة ليسمعوا — فى ساعة أو نصف — ما يريد المديرون المقتدرون ، والعليمون ببواطن الأمور ، لهم أن يسمعوه ، ويقدمون إليهم ميزانية ، يقوم بمراجعتها بيت مالى مشهور كالشركة نفسها ، كأن فى هذا ما يبعث على الاطمئنان !! والميزانية عادة تتحلى بثلاثة صفوف من الأرقام ملاليما ، والله يعلم مقدار التبذير والاختلاس ، تحت أسماء مشروعة ، كالمهايا أو المكافآت أو الاحتياطات أو غير ذلك مما هو للشركة ، كالأموال السرية للدولة . فكيف يمكن للساهم الصغير أن يفهم شيئا وسط هذه الألغاز التى يقدمها له ، ويفتن فيها ، الخبراء المختصون ، ويأخذون منه لقاء ذلك أجراً باهظا ؟ وحتى لو فهم فماذا يستطيع أن يفعل أمام المساهمين الكبار ، ووسط المأجورين والصنائع ، والخطط التى ترسم فى الخفاء ، وطرق الدعاية والتأثير التى تتخذ لمجابهة أى تمرد محتمل .

لقد ظهر فى العالم مصلحون ، وعلماء ومجاهدون قلائل ، ومن قبلهم أنبياء أقل منهم . وإلى هؤلاء وأولئك يعود الفضل فى النصيب الضئيل من التقدم والتحرر الذى ظفرت به الإنسانية . وكان لنا أن نطمع فى تقدم أعظم أضعافاً مضاعفة لو هيمن على شؤون العالم الأنبياء بدلا من الملوك ، والفلاسفة بدلا من التجار ، والعلماء بدلا من الكهنة ، ولكن إرادة الله اقتضت حكم الملوك ، والتجار ، والكهنة ابتلاء للشعوب واستنهاضاً لهمتها ، وإيقاعاً للمسئولية على هذه الطوائف من القادة .

مسئولية الاكليروس والشيوخ عن الانحلال

وصل الأغنياء والكهنة إلى درجة القيادة وأصبحوا مسئولين مسئولية الملوك والأمراء لأن قوة المال بالنسبة للأولين والقيادة الروحية بالنسبة للآخرين قد جعل لهم من النفوذ والهيمنة ما للملوك والأمراء . فهم يؤثرون أثراً مباشراً . بمعنى أن الغنى أو الكاهن كثيراً ما يشغل وظائف القيادة المسئولة لماله أو لكهانته ، فيشغل وزارة المالية — كما فى امريكا — أحد كبار رجال المال والأعمال ، كما يشغل رئيس أساقفة كنتربرى الدرجة الثالثة بعد الملك ورئيس الوزارة ، وسيان هيمنوا بمجرد نفوذهم أو ثرواتهم ، أو أدت الثروات والنفوذ إلى جعلهم أمراء فإنهم فى الحالين مسئولين مسئولية كاملة .

وفى فترات الانحلال تكون الامره بالنسبة للأمير ثروة وتكون الثروة بالنسبة للغنى إمره « أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال » وتكون الكهانة بالنسبة لرجال الدين وسيلة للاثنين ! والأمير يصل إلى الثروة طريق امارته ، والغنى يصل إلى الأمارة بفضل ثروته ورجل الدين يصل إلى الأثنين ، القيادة والثروة باسم الأديان المفترى عليها !

وذلك ما يجعل مسئولية رجال الدين ثقيلة مضاعفة ، بل مثلثه ، فهناك مسئوليتهم العامة كرجال دين ، وهناك مسئوليتهم كأمراء ، أو أغنياء ، أو هما معاً . وهم يبلغون ذلك فى كثير من الأحوال ، ثم هناك ثالثاً مسئولية أخرى ، هى المسئولية الخلقية الخاصة بهم [وهى غير المسئولية الدينية العامة] وتلك المسئولية الأخيرة الخاصة بهم تولدت من أن الناس تنظر إلى رجال الدين نظرة خاصة ، لأن مصدر قيادتهم — وهو الدين — إنما بنى

على مكارم الأخـلاق . واتصلت آصرته من أقدم العصور بالضمير فإذا تحلل خلق رجال الدين انهار إيمان الناس بقدرة وازع الضمير وقوة القيم المعنوية . وسقط الملاط الذى يربط أعمالهم وأقوالهم . فتهاوت إلى قرار المادية البغيضة والأثرة المقيتة . وتاريخ روما أصدق مثال لذلك . فقد صارت فى فترة من فترات تاريخهـا بؤرة من بؤر التحلل ، وعبادة الغرائز . والإفراط فى الشهوات والقسوة والاستغلال ، وانقلب القسس إلى قوادين ولصوص وقتلة ، ذلك لأن البابا كان فى هذه الفترة اسكندر بورجيا ، السفاح الداعر المشهور !

على أنه ليس من الضرورى ، لـكى تفسد الأمة ، أن يصل رجال الدين إلى ما وصل اليه اسكندر بورجيا . فيكفى أن تنتشر تلك الفصيلة من الرذائل فصيلة الملق ، والرياء . والتزلف . ولرجال الدين — فى كل العصـور تقريباً — كتب منشورة تمتلىء صفحاتها بصور الملق والرياء ، واستغلال اسم الله ، ومظهر القداسة فى ابتداع الصيغ الدينية . وستر الفضائح الدنيوية والدعاء للملوك الأمراء بالحفظ والدوام !

* * *

وتختلف مسئولية الـكهنة فى الأديان الوثنية عنها فى الأديان السماوية ، لأنهم فى الأولى ابتدعوا الآلهة ابتـداعاً وزيفوها على النـاس تزييفاً لينفذوا أغراضهم باسمها ، ويحققوا مآربهم تحت ستارها ، ويتولوا الحديث عنها وهى أحجار صماء لا تنطق[1] ويضيقوا الحرية الواسـعة ، ويحرموا

---

(١) لـكى يأخذ القارىء فـكرة عن دور الـكهنة فى ذلك لانرى بأساً بإيراد الوصف الذى دونه الأستاذ اسماعيل مظهر فى كتابه « مصر فى قيصرية الاسكندر المقدوني » لوثن الإله آمون بمعبد سيوه . وهو الوثن الذى استوحاه الأسكندر الأكبر وزاره « كان الوثن كغيره من أوثان التنبؤ مجبولا بحيث يحدث عدداً من الإشارات فيحرك =

الحلال الطيب . يرمون وراء ذلك التحكم فى الناس ، ورفع عصا التحريم والتأديب فوقهم دائماً حتى لا ترتفع رأس باحتجاج . فإذا لمسوا ضيقاً أو مللا أو بوادر ثورة مكتومة من التضييق أقاموا الحفلات الدينية وجعلوها منفثاً للغيظ المكتوم .

بهذه الطرق وأمثالها استطاع الكهنة أن يجدوا لأنفسهم عملا لا كد فيه ولا عناء ، وهو مع ذلك أربح الأعمال ، وأثرى الأشغال حتى زاحموا الأغنياء وفاقوهم واستأثروا بخيرات الجماهير الكادحة وطيباتها التى يقدمونها إلى الآلهة بصفتهم سدنتها والقوامين عليها واستباحوا أن يأخذوا ثمناً للشفاعة وأجراً للغفران كما كان يفعل البابوات .

وصارت لهم زعامة تتضاءل أمامها زعامة الملوك واتخذوا سمت القداسة فسلمت لهم الشعوب الساذجة وألحقتهم بالآلهة ، أو كادت ، وأصبح الكهنة أنصاف آلهة ، كلامهم مقدس وشخصيتهم مصونة .

ومن هنا نعرف كيف أن التوحيد كان ضربة كبرى للكهنة الوثنيين بقدر ما كان نعمة عظمى للشعوب ، لقد حطم القرآن الأصنام وسواها بالأرض فسقط معها سدنتها وتساووا بالناس وفقدوا مصادر سلطتهم وأوصل الإسلام

= رأسه أو ينوح ذراعيه أو يشير بيديه . وكان يعهد إلى كاهن أن يشد الحبل الذى يحرك الوثن ثم ينطق بالنبوءة . وكان الكل يعرفونه معرفة تامة . ولكن لم يدر فى خلد أحد أن يتهمه بالغش أو يرميه بالخداع . ذلك بأنه الأداة التى يستخدمها الإله وبالأحرى آلة مسيرة وكان الروح يلبسه فى برهة خاصة فيحرك الوثن . كما يحرك شفتى الكاهن بما يريد أن يقول . فالكاهن يعبر بيديه وصوته ولكن الإله هو الذى يقدر أعماله ويوحى اليه بما يتفوه من كلمات » .

العبد بالله مباشرة دون حاجة إلى شفيع ، فانتفت منهم صفة الشفاعة والقداسة والاتجار بالأديان ، والتحكم فى المصاير الأخروية وأصبح عليهم أن يعملوا عملا منتجاً ، كالفلاح والصانع والتاجر . فلا عجب إذن أن تشمئز قلوبهم إذا ذكر الله وحده .

وقد حمل القرآن على هؤلاء الكهنة حملات شعواء مسببة . أشار فيها إلى خلق الآلهة المزعومة ، وإلى التحريم والتحليل افتراء ورغبة فى التحكم ، وتحدث عن يوم الزينة الذى استرهبوا فيه أعين الناس ، والشركة المزعومة بين الآلهة والكهنة . وهى الغرض المنشود والوسيلة التى استطاع بها الكهنة ابتزاز أموال الناس . وذكر أمثلة متعددة من التحريمات والطقوس ، ما أنزل الله بها من سلطان .

* ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون .

* وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً وقالوا هذا لله بزعمهم . وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائنا فلا يصل إلى الله ! وما كان لله فهو يصل إلى شركائنا ! ساء ما يحكمون .

* وقالوا هذه أنعام حرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرث حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون .

* أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس .

أما مسئولية رجال الدين فى الأديان السماوية فتأتى من التبديل والتغيير فى كلام الله ، وإخفاء الكتب المقدسة ونصوصها ، وإظهار الكتب المساعدة والشروح ، والمغالاة فى الدين مغالاة لم يقصد بها وجه الله أو الدين وإنما قصد بها رفع شأنهم وتضخيم نفوذهم ، ومضاعفة سلطاتهم ثم الاختلاف والتفرق والتعصب للآراء الفردية حتى تكون سبباً فى تفرقة الأمة ، وتمزيق وحدة الشعب . وأخيراً فكرة الشفاعة التى أوجدوها إيجاداً ، افتراء وتطفلا على الوحدانية الخالصة ، لتبرير وجودهم المهنى وارتزاقهم من الدين . فالشفاعة فى الأديان السماوية هى كالسدانة فى الأديان الوثنية . وليس هناك فرق بين سدنة آمون — رع ، أو « دلفى » ، وبين القديسين الذين ابتلت المسيحية بهم ابتلاء حتى أصبح لكل بلد أو قرية أو مجموعة « شفيعاً » منهم توقف علته الأوقاف الكثيرة . . .

أشار القرآن إلى كل ذلك عند ما تحدث عن الإكليروس المسيحى والكهنوت اليهودى :

* قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من الدين فجعلتم منه حراماً وحلالا آلله آذن لكم أم على الله تفترون .

* ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب . هذا حلال وهذا حرام . لتفتروا على الله الكذب . إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون .

* إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله . ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون .

* اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم . وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً . لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون .

* يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم غير الحق .

* يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم . ولا تقولوا على الله إلا الحق .

* تجعلونه فى قراطيس تبدونها . وتخفون كثيراً .

* وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم . ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم . وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب .

* ثم قفينا على آثارهم برسلنا . وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها . ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها .

* إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل .

وفى الناحية السلبية يلوم القرآن رجال الدين على كتمانهم للشهادة وعدم قيامهم بالأمر بالمعروف النهى عن المنكر . وهى الرسالة الاجتماعية الكبرى التى وكلها الدين اليهم . وجعل بها قوام الأمر كله .

* وإذ أخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه . فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس مايشترون .

* ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق . وانتم تعلمون

* كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون .

مسئولية رجال المال عن الانحلال

من السهل أن ندرك أن العداوة التقليدية بين الدين والمال هى عداوة وجيهة ، لها مبرراتها . إذ أن كلا منهما يمثل فهماً للحياة يختلف أشد الاختلاف عن الآخر . فالدين رمز المعنويات ، والإيثار ، والموضوعية ، والحياة الآخرة . والمال رمز الماديات ، والأثرة ، والذاتية ، والحياة الدنيا . لذلك كان طبيعياً أن يقف كل واحد منهما فى مواجهة الآخر ، وأن يخير الإنسان بين أحدهما ، لأنه لا يستطيع أن يخدم سيدين : الله ، والمال .

ولكن ما من شك فى أنه — من ناحية أخرى — لا يمكن اطراح مسألة المال نهائياً من المجتمع ، ولو حتى من وجهة نظر الدين . وقد يكون حقاً — كما يقول الإنجيل — إن دخول الغنى إلى ملكوت الله ، أصعب من دخول الجمل فى سم الخياط . ولكن يبقى بعد ذلك موقف الغنى فى ملكوت الله الأرضى — لا السماوى — وتنظيم حالة من يوجد لديهم قدر متواضع المال ، لا يمكن معه أن يسموا أغنياء .

وهنا تبدو لنا روعة القرآن ، فهو يحلل الطيبات من الرزق ، ويبيح بلهنية العيش والاستمتاع بما فيها من زينة ، ولكنه يحمل على « الوازع » المادى ، ذلك الوازع الذى يجعل همه ، سلبياً ، الشح ، وإيجابياً التكاثر . ويعنى بالبواعث النفسية التى تدفع الإنسان إلى التكالب على الثروة ، ثم يصوره ، وقد ظفر بها ، فظفرت به ، واسترقت روحه ، ومسخته ، فإذا هو شخص آخر فى فهمه للحياة ونظرته للأشياء ، وسلوكه مع الناس .

ويصور لنا القرآن أثر هذا الوازع المادى ، وهو يقرن الأموال بالأولاد ، بل هو يقدم الأموال على الأولاد . ويشير فى أكثر من سورة إلى حب المال الذى يتملك قلب الإنسان « إنه لحب الخير لشديد » « وتحبون المال حباً جماً » ويلمس الضراوة التى يثيرها فى النفس جمع المال واكتنازه وما يخالجها من اعتزاز وإسراف وطغيان ، « إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » وكيف يلهى المال الناس عن كل شىء حتى تفجأهم القبور « الهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر » وهو يبدى ملاحظة دقيقة : ان إحساس الغنى المفرط بثروته واعتزازه بماله . واعتقاده بقوته السحرية يصل إلى الدرجة التى يعتقد فيها أن المال سيهبه الخلود . وسيقربه إلى الله . وسيعفيه من السؤال والعقاب الذى يطبق على الفقراء ، بل يعفيه من المسئولية كلها « الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده » « وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً ، وما نحن بمعذبين » .

وقدم القرآن عدة صور وصفية بلغت الغاية من الدقة والروعة ، للانسان عند ما تتملكه سورة المال ، فهذا رجل تعجبه حديقته الفيحاء وأرضه الخصبة وما ستدر عليه من مال وفير ، فيقدر نفسه فوق قدرها ، ويثير هذا الإسراف فى التقدير فى نفسه نشوة بل جنوناً ، فيعتقد أن أمواله لن تفنى وإن حديقته لن تبيد ، وإذا كان كذلك فسيخلد ، وإذن لن تقوم القيامة ، ولئن قامت ليكونن فيها خيراً مما كان فى الأولى . . .

« فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا . وأعز نفراً . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً » .

وهؤلاء ثلة تدركهم ضراوة الجمع . وكلب الاكتناز وما يتطلبه ذلك

من بخل وشح . وضن بالإنفاق حتى على الفقير ، ورفض للإحسان حتى بالتقير يهرعون — متخافتين — ليجمعوا ثمار مزارعهم الواسعة ، حذرين أن يدخلنها عليهم مسكين ، متخافتين خشية أن يسمعهم غريب أو عابر سبيل ، ويدهم الحرص والطمع بقوة فيغدون على حرد قادرين . ولا يقبلون استثناء كأن قد ملكوا كل شيء ! .

« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين وغدو على حرد قادرين » .

وهذا قارون يعتز بكنوزه وأمواله ، ويخرج على الناس مزهوا بزينته وموكبه . فإذا نصح له الناس بالقصد غضب ، وصعر خده وزعم — ككل رأسمالي — إنما أوتيه على علم ، وإنه حر يفعل ما يشاء ، وهكذا المال يجعل النصح ثقيلا عقيما ويدفع صاحبه إلى العناد والكبرياء .

« إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة من أولى القوة . إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ، واتبع فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا . وأحسن كما أحسن الله إليك . ولا تبغ الفساد فى الأرض . إن الله لا يحب المفسدين ، قال إنما أوتيته على علم عندى » .

وهذا صحابي فقير يفسده المال تتطلع إليه نفسه وتستشرفه . ويزين له الشيطان أنه إنما يطلبه لنصرة الله ورسوله . فيطلب إلى الرسول أن يدعو الله له أن يغنيه ، ويدعو الرسول له بما أراد . ويستجيب الله سئول الرسول ،

وتضيق المدينة ذات يوم بغنم «ثعلبة» فينتقل إلى واد من وديانها وتشغله أمواله شيئاً فشيئاً فيتخلف عن بعض الصلوات ، ثم يتخلف عن الصلوات العامة كلها فلا يشهد إلا الجمعة ، ثم لا يشهدها ، والمال يتزايد ويتكاثر وتزيد منزلته والوقت المخصص له قدر زيادته ، حتى إذا أتاه رسول النبي صلى الله عليه وسلم يطلب منه الزكاة لم يجد ثعلبة القديم ، ولم ير سماحة الصحابي أو يسمع امتثال المؤمن . وإنما شاهد الضيق الذي ينتاب كل ثرى عند المطالبة ! وسمع صيحة الغضب للمال . . . « إن هذه إلا جزية . . . ما هذه إلا أخت الجزية . . » وأرجأ الرسول ، وضن على المسلمين ببعض ماله .

وكان فيه بقية من خير ، وأثارة من بركة صحبة الرسول فادكر بعد امه ، ولكن الله عز وجل أراد أن يجعل منه مثلا مروعاً خالداً لإفساد المال ، وعاقبه العكوف عليه والاشتغال به — فرفض النبي قبول صدقاته ثم جاء بها إلى أبي بكر بعد أن رفع النبي إلى الرفيق الأعلى فرفضها ، وإلى عمر بعد أبي بكر ، وإلى عثمان بعد عمر ، وهم يرفضون جميعاً ما رفضه رسول الله .

فيا ويح ثعلبة ! لقد هلك . وباء بما له ملوماً محسوراً ، لا يرى لأي شيء فضلا بعد أن خسر نفسه .

وهكذا يصور لنا القرآن هذه القصة ، قصة الرأسمالي ، من نشأته في تواضع إلى طغيانه بالمال ، قصة مصرع الرجل وانتصار المادة « ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه . وبما كانوا يكذبون » .

هذه الآيات كلها تصور لنا قوة وازع الربح الجارفة فى الانسان ومدى مسخها له ، وهيمنتها عليه ، وكيف انها إذا تملكته أخضعت تصرفاته ، كلها لها ، فإذا كان ضيق الأفق بالفطرة ، ممسكا بالطبيعة ، منطوياً على نفسه ، جعل الكنز له دأباً ، والادخار غاية ، فيراكم الذهب على الفضة ، ويجعل متعته الوحيدة استعراضها ومشاهدة بريقها ولآلائها ، فيحجر بذلك على أداة جعلت للتداول ويعطل سيرها ، ويوقف استثمار الثروات ، وانتفاع الشعب بها ، وكم من أموال كنزت فى « الصفائح » وتحت الثرى كانت تسعد آلافاً من الناس لو وصلت إليهم واستطاعوا استثمارها ، ومن أجل ذلك ندد القرآن بهؤلاء البخلاء الممسكين ، الجشعين الكانزين ، وبشرهم بالعذاب الأليم « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم .. يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

وإذا كان الثرى رخواً ليناً إنصرف إلى الاسراف وجعل تحقيق أكبر درجة من الملاذ غايته التى يتفنن فى طرق تحقيقها والوصول إليها ، فيبنى القصور المشيدة ، ويركب المراكب الفارهة ، ويكسو نفسه الخز والديباج وينصرف إلى النساء ، يتخذ منهن جيشاً جراراً لخدمته وامتاعه ، وينقلب إلى الخمر يضرم بها شهواته ، ويلهب بها غرائزه ، ويتطلب فنون الانحلال من رقص خليع ، وموسيقى مخنثة ليتغلب بها على عاقبة الاسراف من ملل وسأم ، كما يتطلب « المسهلات » ليستعين بها على هضم المآكل الدسمة ، حتى يصير قصر الكبير بؤرة من بؤر الفساد . ومستنقع من مستنقعات الانحلال تفوح منها الروائح النتنة وتنتقل منها الميكروبات المعدية الفتاكة

على أجنحة الإشاعات وأطراف الأخبار التى يذيعها على الناس خدمه وحشمه ، فيشيع الانحلال فى الأمة ، لأن الطبقات الدنيا تحذو حذو الطبقات العليا ، ولأن الناس على دين ملوكهم !

ولأن الثرى طالب منهوم لا يقنع بأمواله الكثيرة الطائلة فإنه يطمح إلى الدولة حيث تضاف إلى الثروات المادية ثروة جديدة هى الناس . وحيث تتضاعف الثروات بفضل القوانين . وهو يصل إلى ذلك اما بشراء المنصب واما بشراء الوزراء والكبراء والنواب . ويتم له هذا أو ذاك ، ويجد نفسه فى عشية وضحاها حاكما بأمره . عن يمينه ثروات لا تكاد تنفذ . وعن شماله مطالب للترف ورغبة فى الاكتناز لا تكاد تنتهى . وهو يعمل كالساقية يفرغ من هذه ليضع فى تلك ، لا هذه تنفذ ، ولا تلك تشبع ، ذلك لأنه ما دام هناك أناس فهناك سبل مختلفة للابتزاز ، ولئن لم يبق معهم إلا دراهم معدودة وملاليم بخسة . فإن الدراهم والملاليم تكون ثروات إذا جمعت من الملايين . وقد يصل الناس إلى الحد الذى تخيله «لاسال» فى القانون الحديدى فلا يجدون إلا أقل حد يصلح لبقاء الرمق . ولكن حتى هذا ، لا يزال الناس أحياء فما يزال هناك مجال للاستغلال وتدور عجلة الابتزاز على الناس أنفسهم وعلى حياتهم وعلى رأس المال الآدمى بعد أن أتت على الثروات فيعيش أناس بقتل أناس كما تعيش الخفافيش على دماء ضحاياها . وذلك ما تحقق فى هذه البلاد . وكاد أن يكون هو الوضع الدائم . فبعد الفراعنة الذين استنزفوا أموال الشعب وحيويته فى بناء قبورهم ومعابدهم جاء البطالمة الإغريقيون وأراقوا على موائد لذاتهم وشهواتهم الثروات الطائلة ، ثم جاء الرومان فجعلوا من البلاد مزرعة للغلال ، وجاء العرب ، وتعجب أبو الطيب المتنبى مما يحدث فى مصر ، عبيد يدخلون البلاد عن طريق الشراء فيستعبدون الشعب !

وعناقيد شهية أهملتها النواطير فتهاوت عليها الثعالب نهباً وأكلا ، وما تفنى العناقيد .

صار الخصى امام الآبقين بها فالحر مستعبد والعبد معبود
نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن ، وما تفنى العناقيد

وجاء المماليك ومحمد على وخلفائه واستخلص الكرباج والسخرة والضرائب كل مليم لدى الفلاحين حتى استطاعوا أن يحققوا لأنفسهم البذخ والترف الذى رواه التاريخ عنهم ونلمسه فى آثارهم . وكانت هذه الفترة من أتعس فترات البلاد ، انخفض أهلها ، ووصلت المسغبة والبؤس بالناس إلى غايتها ، وبلغ الفلاحون أقصى درك يمكن أن يصوره القانون الحديدى ، ومع ذلك فإن مجرد وجود مليونين من النفوس المفلسة ، المريضة ، المستسلمة ، كان دائماً ، وبشكل ما ، ثروة كبرى أتاحت الرفاهية المنشودة للمماليك وخلفائهم .

وليس عبثاً أن يربط القرآن دائماً بين الترف . وبين الفسوق . الفسوق بمعناه اللغوى الواسع . ومعناه الشعبى الضيق . وأن يربط بين هذين . وبين الانحلال . وأن يربط بين هذه جميعاً . . وبين القلة من القادة . فيشير إلى المترفين لا إلى الترف . وهذه نقطة بارعة فكلنا ، نعرف أن الترف مفسدة الحضارة . . ولكن أى ترف ؟ إن الطبقات الشعبية فى العالم أجمع لم تذق طعم الترف منذ بدأ الخليقة حتى الآن . وكتب التاريخ مملوءة بصور البؤس والشقاء . . وثورات الشعوب لوطأة الخراج وثقل الضرائب . فالترف ترف الخاصة والقلة . واختصاص القلة بالترف بما يحمل ذلك فى ثناياه من معانى تضخم الترف بقدر شقاء الشعب . وعدم المساواة — بل التقارب — بين الطبقة الثرية الممتلئة . وسواد الطبقات الأخرى . يوضح جناية القلة

على الكثرة .. وجريرة القادة والأمراء إلى الشعوب . وإن مادة الانحلال .. وإن لم تقرب إلى الشعب .. إلا أن إصابة تلك القلة بها كانت كافية لأن يعم الانحلال الأمة وأن تجازى بذنب قادتها .

ولعل مأساة فرنسا فى حربها الأخيرة هى مثل عملى حديث يوضح لنا ذلك . فقد قيل إن هزيمة فرنسا أمام ألمانيا فى الحرب الأخيرة تعود إلى انحلال الشعب الفرنسى . ولم يكن الأمر كذلك . « ومن الخطأ البين » ، كما يروى أندريه موروا « أن يقال إن أسلوب الحياة الفرنسية سنة ١٩٣٩ كان ضالا وخاطئاً ، فملايين من الأسر الفرنسية كانت تحيا حياة تشملها فيها الروابط القوية الصالحة ، وتغمرها فيها البساطة فى أرق صورها غير أن هذه لم تكن حال هؤلاء الثلاثة آلاف الذين يسكنون باريس ، والذين كانوا « يؤمنون — كما يقول بيرون — بأنهم ما داموا يذهبون إلى فراشهم فى وقت متأخر ، فهم لا شك قادة العالم » .

على أننا لسنا فى حاجة إلى الرجوع لسنة ٣٩ .. أو الذهاب إلى فرنسا لحالة الشعب المصرى التعسة إنما تعود فى الواقع إلى أن بضعة مئات من الأفراد هم كبار السياسيين والماليين والقادة ، قد فسدت نفوسهم وخربت ذممهم وقام فيهم شىء واحد هو شهواتهم وهم يسخرون كل شىء فى البلاد لحساب هذه الشهوات وينزلون بها إلى دركات الانحطاط ، دون أن تقترف الملايين وراءها إثماً أو تجن ذنباً .

وبعد ، فمسئولية رجال المال لم تقتصر على شكلها المحلى المحدود لأن تضخم أثر رأس المال قد أوجد أوضاعاً جديدة . فبعد أن كان التاجر يعيش مغموراً فى ركن قصى من أركان المجتمع ، ويخضع راضياً لأنواع من

المضايقات والمصادرات التى يفرضها عليه القادة . أصبح هو نفسه قائداً ، وبرز كيان المصرفيين والرأسماليين فى العصر الحديث ، بأقوى مظاهر وحقائق القادة ، واستعيرت كلمة ملك لأفراد منهم ، وهم فى الواقع يستحقونها عن جدارة . وهى تنطبق عليهم أكثر مما تنطبق على ملوك البلاد الصغيرة أو المستعمرة فكارينجى ملك الصلب . وروكفلر ملك البترول . وفورد ملك السيارات كانوا ملوكاً أقوى وأعظم من عبد الله ، أو الامام يحيى أو بن السعود (الذى يمكن أن تعتبر بلاده مستعمرة لملك الزيت إذ تشرف عليها شركة واحدة من شركاته) .

ويأتى الانحلال فى هذا الوضع الجديد عن الباعث الأول نفسه . وازع الربح . الذى يجعل الشح سلبياً والاكتناز إيجابياً ، إجمال السياسة الرأسمالية فاستغلال العمال . والانتقاص من حقوقهم — أى الشح — ومحاولة تركيز الثروات أكثر وأكثر حتى تتجمع عشرات الملايين فى يد واحدة أو فى أيد قليلة — أى الاكتناز — هما سوأتا السياسة الرأسمالية التى شن عليهما القرآن الحرب ، وندد بهما فى الآيات السابقة التى أوردناها . وهما المسئولتان عن شقاء وتعاسة الطبقة العاملة (أى الشعب) فى البلاد الرأسمالية وما يخفل به المجتمع من مضايقات وحسد وحقد .

الباب الثالث

مسئولية الشعوب عن الإنحلال

« يهتف مصلح جرىء بالفلاح المسكين الذى قضى سحابة عمره يحرث قطعة صغيرة من الأرض ارتوت بالعرق أكثر مما ارتوت بالماء ، أيها الفلاح ، الذى تشق الأرض بمحراثك ، لماذا لا تشق به قلب مستعبدك ؟ فماذا يجد ؟ يجد ابتسامة بلهاء ، لا فهم ولا صدى . ولا استجابة . ويحس كأنه يتكلم بلغة أجنبية . وإذا أوعز الملاك إلى هؤلاء الفلاحين أنفسهم بقتله قتلوه ، ولن يطلبوا لذلك إلا ثمن العيار ! » .

— ١ —

الشعوب المغلوبة على أمرها

لا بد أن نعترف أن تصوير مسئولية الشعوب مسألة أدق من تصوير مسئولية القادة . فهناك لم يكن من العسير أن يلمس الباحث أفراد المسئولين ، ويتحرى أعمالهم وآثارهم عملا عملا ، أما هنا وسط الآلاف والملايين ، كيف يستطيع الإنسان أن يحدد المسئولية ، وعلى من يلقيها .

للوهلة الأولى ، يبدو أن ذلك غير ممكن ، لأن مسئولية الشعوب تخضع كما وضحنا ذلك فى باب مسئولية القادة لحقيقة أساسية هى أن كثرة العدد وتباعد الأمكنة ، وتعدد المشاغل ، جعلت المسئولية الجمعية الكاملة شبه مستحيلة . فقد يكون ممكناً أن يحكم بضعة مئات أنفسهم بأنفسهم بأن يجتمع الجميع لدراسة شئونهم واتخاذ القرارات اللازمة . ومن الممكن بصعوبة أكثر أن يحكم بضعة ألوف أنفسهم على هذا الوضع . وبهذه الطريقة كانت تحكم المدن اليونانية (إذا استبعدنا عنصر الرقيق المجرد من الحقوق) وبعض العشائر والقبائل . ولكن الأمر يغدو مستحيلا إذا زاد العدد ، واتسعت الرقعة ، وتباعدت الأطراف . وحتى لو أمكن حشد هذا العدد الكبير فى مكان واحد لما أمكن أن يشتركوا اشتراكا حقيقياً أو يساهم كل منهم مساهمة فعالة ، ولو أمكن حشدهم مرة فمن الصعب أن يتكرر ذلك ، ومن هنا كان فساد العبارات الاصطلاحية الرمزية فى المذاهب السياسية مثل « حكومة الشعب » فى الديمقراطية « وديكتاتورية البلوريتاريا » فى الماركسية وانها تقبل إلا على اعتبار المجاز والإنابة . وهنا تنقلب المسئولية من مسئولية شعوب إلى مسئولية قادة .

ومما يجعل الشعوب مغلوبة على أمرها ، مجردة من السلاح أمام القادة أن الرجل الشعبي يفقد شعبيته بمجرد خروجه من الغمار وارتفاعه عن مستوى الشعب ! فالريفي ، ليس فحسب ينسى القرية عند ما يعيش فى المدينة ، بل انه كثيراً ما يجعل السخرية على القرية وأهلها هوايته ودأبه ، ومن يشترى عربة سرعان ما ينسى آلام الانتظار على محطات الترام والإمنيبوس والمشى الطويل ، ولا يعطى اهتماماً لمسألة المواصلات وإصلاحها ، كما كان يمنحها أولا . ومن يجد نفسه فى ميسرة ، ولو نسبية ، يفكر بمنطق الحالة الجديدة . اتعظ فى ذلك بما نسمعه من ثورة موظفى الدرجة الثامنة أو السابعة على منح مجانية التعليم لموظفى أو عمال أقل منهم بدرجة واحدة أو اثنتين ! وفى إحدى الروايات الهزلية يمثل « غى حرب » وهو يرسل فرقة كاملة من أتباعه ليهدموا ، هدماً ، بيت الفقر القديم ، وليمحوا الذكريات المؤلمة التى كانت تثيرها ، وتمسح الماضى الكئيب وتذهب به طعمة للنيران وهذا هو ، فى الواقع ، مسلك الكثير من القادة والزعماء الذين يظهرون من أعماق الشعب ، فإنهم يريدون الفرار نهائياً من منبتهم الوضيع ، والالتحاق بركب السادة الجدد ، والتشبه بهم فى الأكل والشرب ، وأكثر من ذلك ، المصاهرة ، كأن لحمة الزواج ستمسح عنهم عار الشعبية .

وهكذا يبدو الوضع متنافراً ، فالشعوب فى حقيقتها هى الملايين الكادحة فى الحقول والمصانع ، وهذه الملايين لا تستطيع التجمع ، ولا يمكنها العمل لو تجمعت (أى بصفها الجمعية) فإذا خرج من صميمها أفراد ليمثلوها ، وينطقوا بصوتها ، انقلبوا بمجرد خروجهم من ثبج المحيط الشعبى إلى دائرة القادة . فلكى يكون القادة شعبيين حقاً يجب أن يظلوا فى الغمار الشعبى ولكنهم إذا ظلوا فى الغمار الشعبى فلن يكونوا قادة ، وإذا كانوا قادة فقدوا

إحساسهم الطبيعى بالشعب ، وانبتت العلاقات القائمة على الزمالة والمساواة بينهم وبين الجموع ، وبدأوا فى ملاحظة اعتبارات الوضع القائم . وهـذا الأمر مشاهد فى حالة العمال الاشتراكيين الانجليز ، قبل الحكم وبعده ، وبصفة عامة فى كافة النقابات العمالية ، فعضو مجلس إدارة النقابة لا بد أن يكون عاملا مشتغلا ، وهو إذا كان كذلك ، فلن يستطيع التفرغ للنقابة ، وإذا تفرغ لها لم يعد عاملا ، وفقد تجاوبه مع العمال ، وأصبح ينظر إليه نظرة خاصة .

إن هذه الضرورة القاسية التى تجعل الشعوب لا تستطيع حيلة ، ولا تهتدى سبيلا أمام القادة ، وترغمها على أن تضع أزمة الشؤون فى غير أيديها ، لم تخف على كثير من الكتاب والباحثين . ولعل خير من عبر عنها وتمثلها هو شوقى الذى ندب حظ « السواد الغافل » و « الجماعات » و « الدهماء » الخ . . . هذه الألفاظ التى يدل مدلولها اللغوى وحده على المقصود من مثل الأبيات الآتية :

يقضون ذلك عن سواد غافل ... خلق السواد مضللاً ومسودا
جعلوا مشيئة الغيبة سلماً ... فى الحادثات لمن أراد صعودا

أو :

سخر الناس وإن لم يشعروا ... لغنى أو قوى أو مبين
والجماعات ثنايا المرتقى ... فى المعالى وجسور العابرين

أو :

فطالمـــا تلاعبوا ... بالهمج المصـــيرة
وعبروا غفلتهـــا ... إلى الظهور قنطرة

- ٢ -

تكييف مسئولية الشعوب وأساسها

إذا كان الأمر كذلك ، ففيم يلقى بنصيب من المسئولية على الشعوب أو يحاسبون عليها ؟ الواقع ان الحقائق السابقة إنما هى تصوير لوجه واحد من وجهى المسألة — ولكل مسألة وجهين على الأقل — أما الوجه الآخر فإنه يخفف من سواد هذه الصورة ويهون من مرارة وقعها ، ويثبت أن الشعوب جانيـة ، قدر ما هى مجنى عليها ، مسئولة قدر مسئولية القادة ، وان لديها وسائل تستطيع بها أن تحقق أغراضها ، وروابط تستطيع أن تجمع بها كلمتها ، وتملى إرادتها دون أن تتصرف بها أهواء القادة والرؤساء .

ولقد وضحنا فى الفصل السابق تلك الاستحالة المادية التى تحول بين الشعب ، وبين حكمه لنفسه بنفسه ، واضطراره إلى الاستعانة بالقادة ، ولكن ذلك يجب أن لا يفهم منه ان الوجود الشعبى قد تلاشى ، وان القادة قد أصبحوا أحراراً يملون إرادتهم دون أى تقدير لرضا الجماعة ، الأمر ليس كذلك بالطبع ، فالقائد سيان كان عسكرياً أو صحفياً أو سياسياً ، مرغم على ملاحظة رغبات الجماعة ، والتجاوب معها ، وهو يعلم بفطرته وتجاربه ، أنه لا يستطيع أن يقود الجماعة ما لم يتملق أهواءها أولا أو يتظاهر بالخضوع لها والعمل على خدمتها ، واستمرار ذلك — حتى وإن كان على أسس من التكلف والنفاق — يحول بين القائد وبين الانطلاق ، ويكبح الزمام ، ويوجد جواً من التميع فى إصدار الأوامر . والقائد يقف من الشعب موقف المروض من الوحش ، يعلم أنه إذا أراد أن يتبع الوحش تعليماته ، فعليه أن يحصر ذهنه

كله فيه فإذا شرد لم يأمن الانقضاض أو كراكب الأسد — كما قال ابن المقفع — يخافه الناس ، وهو على نفسه أشد منهم خوفا .

ولقد أثبت جوستاف لوبون فى كتابه سر تطور الأمم شيئاً فى غاية الأهمية والخطورة . ذلك أن الأمم لا تتطور تبعاً لإرادة القادة ولا انسياقا لرغباتهم . وإنما تتطور ببطء شديد داخل الإطار الذى ترسمه روحها ومزاجها ، وان من يريد — من القادة — مخالفة هذه الروح إلى غيرها ، أرقى أو أحط فانه يكون كمن يحاول إقناع السمك بامكان البقاء فى الهواء « بحجة أن التنفس الهوائى ناموس جميع الحيوانات الراقية ! »[١] .

ويقول جوستاف لوبون فى ذلك[٢] « ان لكل أمة مزاجا عقلياً ثابتاً كثبات خواصها التشريحية . وهذا المزاج هو الذى تصدر عنه مشاعرها ، وأفكارها ونظاماتها ومعتقداتها وفنونها ، وقد ظن توكفيل وغيره من كبار المؤلفين أن نظامات الأمم أصل فى تطورها ، ولكنى على الضد من ذلك ، أرجو أن أقيم البرهان من أحوال الأمم التى بحث فيها توكفيل على أن تأثير النظامات فى المدنية ضعيف جداً وانها فى الغالب مسببات لا أسباب » .

ولئن كانت الأمة — فى هذه النظرية مقيدة — إلى حد كبير — بمزاجها إلا أن هذا التقييد ينسحب أيضا على القادة . ويكون أثره عليهم أعظم ، لأنهم بالطبع أشد إسرافا ، وأبعد عن روح الشعب منه نفسه ، فإذا كانت هذه النظرية لا تعطى الشعب قوة الإبداع السريع والمباشر إلا أنها تجعل من روح الشعب قواما على أهواء الساسة ، والقادة وسرفهم ، وتجعل شأن العظماء محصوراً فى تمثيل الأمة ، فاكتشافات المكتشفين إنما هى ثمرة

(١) سر تطور الأمم لجوستاف لوبون ص ١١٣

(٢) المصدر نفسه ص ٧

اكتشافات كثيرة سابقة ، وليس عظماء السياسة بأقل ارتباطا بالماضى من المكتشفين والمخترعين « إذ ليس لائرهم بقاء إلا إذا عرفوا كيف يستخدمون مقدرتهم حيث تكون حاجات عصرهم كما فعل « قيصر » و « ريشيلو » ، وحينئذ فالسبب الحقيقى فى نجاحهم موجود قبلهم بزمن طويل ، ولو ظهر الرجلان قبل عصرهما بقرنين أو ثلاثة قرون لما أتيح للأول أن يخضع الجمهورية الرومانية العظيمة إلى إرادة سيد قاهر ، ولا تمكن الثانى من إيجاد الوحدة الفرنسية وعليه فكبراء السياسة الحقيقيون هم الذين يمثلون حاجات الأمم التى اقتربت والحوادث التى أتم الزمان معداتها ويرشدون إلى الطريق الذى يجب السير فيه »[١] .

وقد وضح هذا المعنى فى العصر الحديث ، وأصبح صوت الجماعة هو الآمر ، فلئن وجدت الجماعة من يندب حظها السيىء ، وقضاء الضرورات القاسية عليها ، فإنها لم تعدم من يشيد بها ، ويقول « كان المؤثر فى الحوادث التاريخية منذ قرن واحد هو السياسة التقليدية للدول ومنازعات ملوكها . ولم يكن لرأى المجموع وزن يذكر ، لم يكن له قيمة أصلا فى الغالب . أما الآن فالسياسة التقليدية هى التى أصبحت لا وزن لها . ولا أثر للمنازعات الشخصية بين الملوك ، بل صارت الغلبة لصوت الجماعات ، فهو الذى يرسم للملوك خططهم . وهو الذى يجتهد الملوك فى الاصغاء إليه ، وأمسى مصير الأمم راجعاً إلى ما تحمله روح تلك الجماعات لا إلى ما يراه أصحاب مشورة الأمراء[٢] .

فبعد أن احتفظت الشعوب لنفسها بامكانية التطور العميق ببطء ، ومع

---

(١) المصدر نفسه ص ١٦٦ .

(٢) روح الجماعات ص ١٦٦ لجوستاف لوبون ص ١٠

مسايرة روحها ، وأسلمت للقادة قيادة التطور السطحى ، والسياسى مادام متفقاً مع روحها ، عادت ، فانتزعت قيادة التطور السطحى والسياسى ، وأشركت فيه الجماهير والجماعات .

فإذا كان هذا كله يمنح الشعوب قضاء وسلطة ويجعلها مسئولة عن الانحلال ، فيجب أن نوضح الأساس الجمعى لهذه المسئولية ، فإذا قلنا ان الشعب المصرى مسئول عن كذا . . . فماذا نعنى بذلك ، وبأن صفة نشترك فى المسئولية أشخاص الأفراد ، ونجمع بينهم على اختلافهم ؟ . وكيف يصح لنا أن ننظر إليه ككل واحد ، مستحق للثواب أو العقاب ، متحمل للمسئولية ، ان الاجابة على هذا يدلى بها علماء الاجتماع ، فهم يوضحون لنا ان كلمة « شعب » تدل على ما هو أكثر من مجموعة من الأفراد . أو الآحاد وهم يرون ان اجتماع الأفراد بعضهم ببعض يولد حالة جديدة تتسم بخصائص مختلفة تمام الاختلاف عن خصائص كل فرد على حدة . وفى ذلك يقول بعضهم « عندما تعمل جماعة من الناس سوياً يندر أن يظلوا مجرد عدد من « الأنوات » ـ جمع أنا ـ المستقلة . ولن يحدث هذا إلا تحت ظروف خاصة جداً والذى يحدث بدلا من ذلك أن يصبح المشروع العام محط عنايتهم جميعاً ، وبالتالى يعمل كل منهم باعتباره جزءاً من كل »[١] .

وهم يستدلون على ذلك بالظاهرة المعروفة جيداً فى علم النفس والاجتماع ـ ظاهرة العقل الجمعى ـ أو عقلية الجموع . أى تلك الحالة النفسية التى تنتظم الأفراد عند اجتماعهم ، وتعطيهم طريقة للتفكير والعمل مختلفة عن الطريقة التى يفكر بها كل واحد منهم ، فنرى الهادىء المتزن وقد استخفه

---

(١) الأسس النفسية للابداع الفنى للأستاذ مصطفى سويف ص١١٣ .

الحماس ،فتهور . وتجد الجبان وقد استثارته الشجاعة ، فتقدم . وترى الجميع ، وكأن سحراً ألم بهم ففقدوا شخصياتهم الفردية المتعددة وانتظمتهم شخصية واحدة حتى لكأنهم أصبحوا شخصاً واحداً .

وهم يستدلون على أنه ليس مما يخالف الوقائع الملموسة أن يكون الشعب — وهو من وجهة النظر السطحية ، مجموعة عدة أفراد — شيئاً أعظم من ذلك ، بظاهرة التغير الكيميائى ، أى أن مزج العناصر بعضها ببعض يولد عناصر جديدة تتوفر فيها صفات لا تتوفر ولم توجد فى العناصر القديمة المكونة لها . فملح الطعام مثلا مكون من عنصرى الصوديوم وهو معدن خفيف لين يطفو فوق سطح الماء . وإذا مسته النار تصاعد منه لهب كثيف أصفر . وإذا ابتلع إنسان قطعة من الصوديوم لجاز أن تستحيل إلى كتلة من المعدن الذائب الملتهب ! والكلور وهو غاز خانق سام ، إذا استنشقه إنسان نزف الدم من رئتيه نزفاً يؤدى به إلى الهلاك ! ومزيج هذين هو ملح الطعام ! الذى إذا عدم لحق الفساد بكل صف من أصناف الحيوان ابتداءاً من الأمبية إلى الإنسان . والماء ، وهو سائل ، مزيج من غازى الأوكسجين والهيدروجين . والبرونز ، وهو معدن صلب ، إنما يتكون من مجموعة من المعادن المرنة .

وقد أشار إلى هذه الظاهرة [١] جوستاف لوبون . فقال « أهم ما تمتاز به الجماعة وجود روح عامة تجعل جميع أفرادها يشعرون ويفكرون ويعملون بكيفية تخالف تمام المخالفة الكيفية التى يشعر ويفكر ويعمل بها كل واحد منهم على انفراده وذلك كيفما كان أولئك الأفراد . وكيفما تباينوا أو اتفقوا

---

(١) ص ١٨ روح الجماعات .

فى أحوال معيشتهم . وفى أعمالهم اليومية وأخلاقهم ومداركهم . وعلة ذلك انضمامهم إلى بعضهم وصيرورتهم جملة واحدة ، والجماعة ذات عارضة متألفة من عناصر مختلفة اتصل بعضها ببعض تخليات الجسم الحى التى ولدت باتصالها ذاتاً أخرى — لها صفات كل خلية فيها ، ولا يوجد بين العناصر التى تتكون منها الجماعة حد وسط . وإنما الذى يوجد هو مزيج وتولد صفات جديدة كما يحدث ذلك فى الجواهر الكيماوية ، ألا ترى انك إذا جمعت جوهرين مثل القواعد والأحماض تولد عن اجتماعهما جسم جديد ذو خواص تخالف تماماً خواص كل واحد من الجوهرين » .

ولا شك ان أعظم الحوادث التاريخية ، والأعمال الكبيرة من ثوراث أو حروب ، أو تنظيم ، إنما تمت بموافقة الجموع فى تلك الحالة التى تجعلها شخصا واحداً . وتجعل مسئولية كل فرد تعادل مسئولية الآخر .

على أن هناك عناصر أخرى توجب المسئولية الجمعية . فالشعوب . إذا تجمع أفرادها ، فى المدن ، والقرى ، للبت فى مختلف الشئون السياسية والاجتماعية ، اعتبروا كفرد واحد ، وأصبحت المسئولية الجمعية واضحة . فإذا لم يحدث التجمع ، فهناك بين الأفراد ، ما يعادل التجمع ، هناك الروابط القوية التى تربط أفراد الشعب وتنظمهم ، وتوحد بينهم .

ومن المشاهد ان أوضاعا جديدة تتولد بمجرد تجمع الناس كاحدى الضرورات التى تطلبتها طبيعة الاجتماع نفسه . فتظهر التجارة والصناعة وأساليب الإنتاج ، وتوزيع وتقسيم العمل ، ويسن القانون ، وتؤسس المدارس ، ويكون الجيش الخ . . . وهذا الضرب من النشاط الذى يقوم نتيجة لنشاط الشعب وارتباط أفراده بعضهم ببعض ، والذى يكيفه الشعب ، ثم يعود

فيؤثر على الشعب ، يجعل الشعب مسئولا عنه كوحدة ، أو على الأقل يربط بينه بما يجعل مسئولية كل واحد مشابهة لمسئولية الآخر .

ومن أقوى الشواهد فى التدليل على وحدة الشعب ومسئوليته الجمعية ، رابطة العقيدة . فالعقيدة أيا كانت توحد بين الأفراد وتحدد لهم الغايات والوسائل ، فإذا كانت هذه العقيدة هى الدين ، فإنها تلزمهم آدابا خاصة وتمنحهم فلسفة شاملة فكل الذين يدينون بالإسلام يتبعون آدابا واحدة ، ويولون شطر قبلة واحدة ، وينهجون فى أكلهم وشربهم ، وقيامهم وقعودهم وصلاتهم وصيامهم نهجا واحداً .

وليس هناك ما هو أقوى من العقيدة فى الوجود الاجتماعى وفى ذلك يقول الفيلسوف الانجليزى المعاصر برتراند رسل « من السهل أن يتضح لنا أن العقيدة ذات سلطان على جميع أنواع القوى الأخرى التى تتفاعل . فلا قوة لجيش بغير جند تؤمن بالهدف الذى من أجله تحارب ، وحتى الجند المرتزقة لا تقدم على الحرب إلا وهى تؤمن بمقدرة قائدها الذى سيقودها إلى النصر . ولا يكون القائمون ذو سطوة ونفوذ إلا إذا ساد الرأى باحترامهم . والنظم الاقتصادية تعتمد تماما على احترام القوانين فتصور مثلا ماذا يحدث لنظام البنوك فى بلد لا يجد فيه المواطن العادى حرجا فى أن يزور الشيكات . ولقد أظهرت العقيدة الدينية فى كثير من الأحيان إنها فوق الدولة كما أنه إذا كانت الأغلبية فى بلد تظاهر الاشتراكية استحال على الرأسمالية أن تواصل عملها ، وعلى العموم يمكننا أن نقول ان الرأى والعقيدة هو المرجع النهائى لكياننا الاجتماعى » .

ولننظر إلى قوة عقيدة « كالشرف » مثلا إذا تملكت النفوس . إنها تستطيع أن تدفع بالناس إلى أخوف المخاطر وتثنيهم عن أحبها إذا اقتضى

قانونها ذلك ، تدفع بالرجال دفعاً إلى مخاطرة الحرب حيث الموت الأكيد فيسيرون إليه هاتفين : « لو أن الحياة هى كل شىء » وتثنى النساء عن الوقوع فى مخاطرة الحب ولقاء الأحبة فيئدن حبهن الوليد هامسات ، ونفوسهن تتقطع حسرات « لو أن الحب هو كل شىء » فالرجال يعلمون أن الحياة ليست هى كل شىء ، والنساء يعلمن أن الحب ليس هو كل شىء ، لأنهم معاً يضعون الشرف فوق الحياة ، وفوق الحب . وانه — إذا كان فى شكل العقيدة — لأقوى منهما .

فإذا كان للعقيدة هذه القوة ، وإذا كانت تتسلل إلى النفوس فتوحدها وتلزمها آداباً واحدة ، وتتغلب فيها على نوازع الطبيعة نفسها . فلا شك أن مسئولية ضلال العقيدة ، وما يترتب على هذا الضلال من أخطاء . يقع على جميع المؤمنين بها ، ويتساوى كل المؤمنين فى التبعة . فالشعب الذى يؤمن ، أو حتى على الأقل تؤمن أغلبيته ، بإله مزيف . يستحق أفراده ، العواقب التى تترتب على هذا الإيمان ، لأنه يساهم فى بناء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تتطلبها هذه العقيدة المزيفة الخاطئة .

ومن هذه الروابط « الطابع القومى » . ذلك الطابع الذى يبرز بقدر عراقة الشعوب وتوالى القرون والأزمنة عليها . ويمثل ثباتها ، ويتجلى فى كل شىء ، فنونها . آدابها . عاداتها الاجتماعية . تقاليدها . لهجاتها . فهمها للحياة ، ونظرتها إلى الأشياء ، بل إنه ليكاد يجرى يده على السنح والبنى فتتقارب سنح أفراد الشعب الواحد . حتى ليكاد الفرد الواحد يمثل الجنس كله . ويستدل به عليه ، إذا وضع بين الأجناس الأخرى ، وليس فى هذا غرابة ، على كل حال ، إذا ذكرنا أن الشعوب (١) . وإن تكاثر عددها ،

(١) قدر أحد الباحثين أن الفرد الفرنسى يحمل فى جسمه دم عشرين مليوناً =

إلا إنها قد تعود ، إلى عدد ضئيل من الأفراد ، أو حتى أسرات معدودة .

والواقع أن كلمة الشعب ، إنما تطلق فحسب على هـذه الجماعات التى استكملت الطابع القومى ، والمقومات الشعبية ، ودعمتها الأزمان والقرون .

ومع أن الأفراد أحرار — كما يقال — فى تصرفاتهم . فما من شخص واحد يستطيع أن يرتدى لباساً خلاف اللباس السائد فى المجتمع . واذا فعل اعتبر الناس ذلك استهانة بهم وتحقيراً لهم . واعتداء عليهم . وان لم يكن قد وجه اليهم شيئاً على الاطلاق . ذلك أن المجتمع وإن تفرق فى آحاد الا إنه مربوط برباط العادات بجسم واحد .

الروح الجمعية للشعب . وطابعه القومى ، وشتى الروابط من تاريخ وتقاليد وعرف وعقائد دينيـة وسياسية ، هى الأسس التى تعطى ملايين الأفراد شخصية معنوية واحدة وتحملها مسئولية باعتبارها شعباً .

هذا كله فضلا عن الحقيقة المادية الواقعة . وهى أن المجتمع الإنسانى وحدة تتأثر بعضها ببعض . أو هو كما شبه الحديث الكريم ، كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . وكل كلام عن الفرد كـكل مستقل كلام لامعنى له من الوجهة العملية . وقد يكون صحيحاً من الناحية النظرية . ولـكنه لاينطبق إلا على انسان ما قبل التاريخ والمجتمعات ، والفرد المنعزل فى جزيرة أو غابة .

ولعل قائلا يقول إن كثيراً من الأفراد لا يشتركون اشتراكا فعلياً فى

= على الأقل من معاصرى سنة ١٠٠٠ باعتبار أن فى كل قرن ثلاثة أجيال . ويقول إن جميع سكان كل ناحية أو إقليم يشتركون حتما فى أجدادهم فهم مخلوقون من طينة واحدة وعليهم كلهم طابع واحد .

النشاط الاجتماعى الذى هو بالدرجة الأولى — مصدر المسئولية فكيف يحاسبون على ما لم يشتركوا فيه ؟

والرد على ذلك ممكن من عدة وجوه .

إن عدم مساهمة بعض أفراد الشعب فى نشاطه الاجتماعى هو نفسه جرم كبير يستحق عليه المؤاخذة . لأن الأوضاع الاجتماعية تهم الأمة كلها وتؤثر على مستقبلها ووجودها تأثيراً بالغاً . فكيف يدع بعض أفراد الشعب . المسىء دون توجيه ، والمحسن دون تشجيع وكيف يتركون ميدان العمل الجماعى لقلة من الناس تنفرد به وتعيث فيه فساداً . إنه تنصل من المسئولية لا يقبل . واطراح للعبء بعد التعهد بحمله ، ونكوص عن المضى فيه إيثاراً للعافية . وتفضيلا للراحة ، وزهداً فى العمل ، واعتمادا على الغير ، فتشخيص الموقف الحقيق ليس هو عدم الاشتراك ، وإنما هو الاستخذاء وهم يشاركون بذلك فى جرم القادة وجنايتهم بقدر ما يفرطون فى حقوقهم ، ومسئولياتهم .

ومن ناحية أخرى فاننا قد قلنا ان الشعب يكون وحدة لا تتجزأ ولا يمكن أن يكون بعض هذه الوحدة مسئولا ، وبعضها الآخر غير مسئول ، وحتى لو افترضنا إمكان وجود جزء مسئول ، وآخر غير مسئول فلا مناص من تقرير مبدأ الأغلبية والأكثرية لأنه الإجراء الوحيد الذى يمكن الأخذ به فى حالة الجماعات . والقرآن الكريم كثيرا ما يأخذ بهذا المبدأ . ويبنى مسئولية الانحلال على فساد الأكثرية [1] ، وضآلة عدد المؤمنين وقلتهم ، وان كان فى حالات أخرى يوضح لنا أن رحمة الله كثيرا ما تتغلب على قسوة الجزاء ، أو استحقاق العقاب ، فينجى القلة المؤمنة من العذاب الذى حق على الكثرة

(١) تأمل هذه الصيحة مثلا « أليس فيكم رجل رشيد ؟ » والآية الأخرى « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » .

الضالة . ولعل أبرع الأمثلة على ذلك هى الآيات التى توضح لنا كيف تتغلب قوة العقيدة ، على قوة الوسط فنرى الكفر فى بيت الأنبياء ! ونرى الإيمان فى قصر فرعون ، ونرى كيف انجى الله المؤمنين ، قاب قوسين من العذاب ، وكيف أهلك الكافرين أدنى ما يكونون إلى الناجين « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة . ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين . ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها ، فنفخنا فيه من روحنا » .

وفى آيات أخرى نرى أقوام نوح ولوط وهود وشعيب وفرعون وقد حق عليهم العذاب إلا قلة من المؤمنين اتبعوا الأنبياء . وجاهدوا معهم ، ولم يسلكوا خطة التسليم والاستخذاء . فأنقذوا معهم . ونجوا من العذاب .

« ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ » « فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز » « قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا اليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولايلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ؟ » .

« ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » .

وليس هناك تعارض بين ما نذكره هنا عن المسئولية الجمعية وبين ما ذكرناه فى الباب الأول عن فردية المسئولية لأن المسئولية هنا — مسئولية

وظيفية — يحاسب فيها الأفراد كجزء من الشعب ، وعلى واجباتهم وحقوقهم كأفراد فى الشعب ، لا كآحاد مستقلة لا كيان لها ولا صلة بينها .

وأخيراً فيجب أن يكون معلوماً أن ليس هناك تجاف قط بين توقيع هذه المسئولية ، وبين مبادىء العدالة . لأن المسئولية تشمل الحقوق كما تشمل الواجبات . فبمقتضى هذه المسئولية يصبح للفرد حقوقاً فى المجتمع ، حقوقاً فى المشاركة السياسية والتكافل الاجتماعى . ولما كان الإنسان اجتماعى بطبعه ، وكانت المجتمعات الإنسانية أمراً لا مفر منه ، فإن ملاحظة هـذه المسئولية ليست حسب أمراً يتفق مع مبادىء العدالة ، بل هو أمر تستلزمه وتقتضيه طبائع المجتمع الإنسانى . وقد وقعت الديمقراطية فى خطأ جسيم هو تقدير الحقوق والواجبات على أساس فردى خافت على الفرد من حيث أرادت التحرز له والحرص عليـه ، إذ ضحت بالأكثرية فى سبيل الأقلية ، ومكنت الأفراد الأقوياء — وهم أقلية — من هضم الأفراد الضعفاء وهم الأكثرية ، فانتقصت من حرية المجموع بحجة الحرص على حرية الفرد ، ولو لحظت المعنى الجماعى لما تورطت فى هذا الخطأ . ومن أجل هذا فإن المبدأ الشيوعى « فى الجماعة المنظمة وحدها ، يجد الفرد فرصة لتنمية مواهبه وميوله ، ولهذا لا تتوافر حرية الفرد إلا فى جو المجتمع الجماعى » ، أفضل للشعوب من ثرثرة الديمقراطية عن مساواة جميع الناس ، وإن كان المبدأ الشيوعى يخطىء حين يرتب على مقدمته السليمة تحريم تعدد الأحزاب ، أو كبت المخالفين له بالقوة وإنه لخطأ شنيع .

ولقد حاولت الديمقراطية إصلاح نقصها من الناحيـة المادية بمشاريع التأمينات ، ولـكن عدم وجود أساس فلسفى جماعى ترتكز عليه هذه المشاريع انتقص من قيمتها فى النفوس . فحاولت الديمقراطية إصلاح هذا

الآخر بفكرة « الضمير الاجتماعى » ولكن فكرة الضمير الاجتماعى أقرب إلى فلسفة الإحسان والعطف منها إلى فلسفة اجتماعية ثابتة ، ولم تأخذ بعد شكل الإلزام . وفى نظرنا أن المسئولية الجمعية فى القرآن تحقق هذا الإلزام ، والأساس الفلسفى ، وتفتح فى الوقت نفسه باب الحرية الذى أغلقته بقسوة النظرية الشيوعية .

— ٣ —

مسئولية الشعوب عن الانحلال : الاستخذاء

بعض النظريات السياسية تجعل من الفرد ، وبالتالى الشعب ، تابعاً للدولة . . ووسيلة لها . . يفنى فى وجودها العظيم وتندغم شخصيته الفردية فى شخصيتها الجماعية ، وتجعل للقادة نصيباً من الحكم والسلطة تتناسب مع قدر الدولة الجسيم ، ومنزلتها السامية ، وتلزم المحكومين الطاعة المطلقة للحاكمين .

وهناك نظريات سياسية أخرى تجعل الشعب الغاية والدولة الوسيلة وتدع للشعب أن ينتخب الحكام بنفسه وتمكنه من اسقاطهم حتى يأمن تحكمهم .

وبين هذين مذاهب أخرى تعترف بحق الشعب فى الحرية والسيادة ، وأن يكون الغاية التى تعمل لها الدولة ، ولكنها ترى أن إرادة الشعب وغائيته ليست مطلقة . وإنما هى مقيدة بعوامل التطور المادية .

وتمثل النظرية الأولى الديكتاتورية والفاشية ، والثانية الديمقراطية ، والثالثة الشيوعية والماركسية .

فأين يضع القرآن الشعوب بين هذه المذاهب ؟

من الواضح أن القرآن يستبعد المذهب الفاشى والديكتاتورى لأنه لا يسمح بتقديس الدولة . وإفناء شخصيات الأفراد فيها . ولا يعطى القادة تلك القوة المغالى فيها . . أو يلزم الشعوب الطاعة المطلقة لهم .

ومن الواضح أيضاً أن القرآن لا يؤمن بتلك الجبرية الاقتصادية أو يقبل سيطرة المادية على بقية نواحى الحياة وينفر من تغليب ناحية على أخرى ، لأن مثله الأعلى هو العدل والاتزان .

وبذلك يستبعد القرآن وضعية الشعوب فى المذاهب الفاشية والشيوعية .

ومن المحقق كذلك أن النظرية الديمقراطية — أى سيادة الشعب وغائيته — كانت دائماً ، وما زالت ، مثلا أعلى ونزعة « طوبية » لم تتحقق قط . كما وضحنا ذلك فى الفصول السابقة عند ما تحدثنا عن مسئولية القادة . وحتى الآن لم توجد الحكومة التى تطلبها لنكون « حكومة الشعب بالشعب وللشعب » ، أو تظهر الحكومة التى تجعل الإنسان غاية فى ذاته ، كما كان يريد « كانت » .

صحيح إن الديمقراطيات الغربية قد سارت شوطاً كبيراً فى سبيل ذلك ، وحققت درجات لم تحقق قبل ، واستطاعت أن تحطم استبداد الدولة القديم ، ولكن من الصحيح كذلك أن نهاية الشوط ما زالت بعيدة جداً ، حتى إن الباقى من آمالها أكثر مما قطعت ، فضلا عن أنها تنتكس فى لحظات فتعود إلى شر ما كانت عليه .

وذلك يعود إلى أن الديمقراطية تناست اعتبارات لا يمكن إهمالها تمس طبائع الأشياء ، وضرورات الاجتماع والنفسية البشرية ، وموقف الإنسان من البيئة المحيطة .

ومن السهل أن نقول إن حكومة الشعب بالشعب وللشعب ، مثل أعلى

جميل ، وإن الإنسان غاية فى ذاته ، غاية ما بعدها غاية ،على أن يكون ذلك كله من الناحية النظرية ، ومن وجهة نظر الإنسان .

أما فى الأديان قاطبة ، فمن الطبيعى أن لا يكون الإنسان الغاية التى ما وراءها غاية ، وأن يكون الله هو الغاية .

وقد يبدو هـذا انتقاصاً من قيمة نظرة الأديان إلى الإنسان . ولـكن هذا خطأ ، فالإنسان يجب أن يأخذ حقه فحسب ، لا أكثر منه . وقد فشل الإنسان كالـه ، ولم يستطع أن ينظم كونه الصغير والفكرة المزهوة عن الغائية . والحريات قد شطت به ، فأوجدت الحروب ، وابتدعت قنبلة ذرية تزلزل الأرض تحت قدميه .

وكلما فـكرنا فى القصور البشرى ، وضعف الإنسان ، وتعمقنا من ناحية أخرى فى جسامة الـكون ولانهائيته ، كلما أحسسنا بحاجتنا الملحة إلى التواضع وصغرت أمامنا ضروب الاهتمامات الإنسانية المبالغ فيها دون حق ، واقتربنا شيئاً فشيئاً من ذلك العالم الفلـكى الذى سألوه ذات يوم : هل صحيح أن الإسراف فى استخدام القنبلة الذرية يمكن أن يدمر الأرض ؟ فأجاب : هذا لا يهم ، فإن الأرض ليست هى أكبر الأفلاك !

ولعمرى إن تلك الإجابة ، إذا ضمت إلى النظرة المثالية الغائية ، توضح لنا مدى مفارقات النظرة الجانبية المفردة ، والتحيز دون تقدير باقى النواحى . فهذا الفيلسوف الإنسانى المطلق يرى الإنسان غاية فى ذاته ليس وراءه غاية ، سخرت له السموات السبع والأرضين . ولـكن العالم الـكونى التائه بين النجوم لا يأبه كثيراً لدمار الأرض التى يقف على بضعة أشبار منها ، بحجة أنها « ليست أكبر الأفلاك السماوية ! »

ولو أنهما التقيا ، لأمكن أن يخرج من أقوالهما وجهة نظر قريبة جداً من وجهة نظر القرآن .

فالقرآن يرى أن الفاشية والشيوعية يسرفان فى التحكم ، ويضيقان من الحرية ، ويلزمان الشعب ضروباً من الالتزامات ما أنزل الله بها من سلطان ، كما يرى أن الديمقراطية تسرف فى حرياتها حتى تصل إلى الفوضى وإلى استغلال الغنى للفقير ، وظلم الكبير للصغير ، واستعباد القوى للضعيف ، فلا تتحقق حرياتها إلا لطائفة قليلة من الناس ، على حساب البقية الكبرى للشعب .

والإنسان ليس تبيعاً مسلوب الإرادة معدوم الحرية أمام عجلة التطور ، ولا هو كذلك غاية ، يأمر من كوكبه الصغير فتأتمر بأمره الأفلاك ، أو حتى يهيمن كما يشاء على شئون عالمه الأرضى .

ولكن القرآن يرى الإنسان « خليفة » الله فى الأرض ، أبدعه ونفخ فيه من روحه ، ثم ابتلاه بالشيطان ليكون الخير والشر فتنة ، وأنزله الأرض يرتع فيها ، ومنحه نصيباً من الحرية والإرادة يستطيع به أن يميز بين الخير والشر ، وأنزل فى جذر قلبه الأمانة ، وأجرى فى دمائه الشياطين ، ثم أرسل الرسل والأنبياء ليواجهوا إغراء الشياطين ، وليحملوا دعوة الخير ، كما يحمل الشيطان دعوة الشر ، ووضح لهم فى هذه الأديان طرق النجاة وسبل السلام ، فإن اتبعوها فازوا . وإلا جوزوا فى الحياة الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما معاً .

فالإنسان خليفة الله ، فضله على الملائكة ، وأمرها أن تسجد له . وبذلك يقترب الإسلام جداً من المثل الأعلى الديمقراطى الذى يجعل الإنسان غاية ،

إذ أن خلافة الله فى الأرض ، هى أقصى ما يمكن أن يمنحه دين أو يطمع فيه الإنسان نفسه إذا آمن بالألوهية .

ولكن يجب أن لا ننسى أيضاً ، أن الله فوق الإنسان ، وما أصغر وجود الإنسان إزاءه ، إن عليه أن يسجد لله ، كما سجدت له الملائكة ، إنه ليس حراً ، وإن كان الله وحده هو المسيطر .

فهذه الوضعية المحكمة الفريدة ، بين الحرية فى الأرض والسيادة على الكائنات ، وبين الاستخلاف من الله والالتزام بأوامره ونواهيه ، هى وضعية الإنسان فى القرآن ، وهى وضعية الشعوب ، لأن الإنسان اسم جنس ، تمثله الجماهير والملايين .

فالشعوب حرة ، غير ملتزمة إلا بالقانون السماوى الذى هو كالحبل السرى يصل بين الابن ، والأم ، يربط بين الإنسان ، وبين سمائه ، التى منها نزل . وإليها يعود .

ومن هنا لزم أن يأتى الوحى .. وأن يقوم بدوره بين السماء والأرض ولزم أن يوجد الأنبياء ليكونوا القلوب الصافية الأمينة ، والأوعية النقية الطاهرة التى يتنزل عليها هذا الوحى « نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المرسلين » . ليبلغوا قانون السماء إلى الإنسانية ، وليس لهم من الأمر شىء ، فهم لا يأتون به من عندهم ، ولا يزيدون عليه ، ولا ينقصون منه ، ولا يلزمون الناس طاعة أو حقاً غير تلك اللازمة لتحقيق القانون السماوى ، وتأدية الرسالة التعليمية .

وقد انتهى عهد النبوات . وفى ذلك مغزى كبير إذ هو إيذان ببلوغ البشرية سن الرشد واستطاعة العقل البشرى الاحتفاظ برسالة الأنبياء .

وقسم لنبي الإسلام أن يكون الوصي الأخير على العقل البشرى الذى يسلم إليه الأمانة ممثلة فى كتاب بعد أن كان الاعتماد فى الرسالات النبوية على المعجزات الحسية الملموسة (١) . وانتهى بذلك إلزام الإنسانية الطاعة لشخص معين اختاره الله ، وانقطع حبل الوحى الذى كان تتنزل عليه آيات لا تملك البشرية أمامها إلا الخضوع والتسليم ، لأن القوى البشرية لا تبلغ مداها أو تدرك شأوها ، وآل الأمر إلى الناس ، إلى أمانة قلوبهم وابتداع عقولهم ورياسة القادة والعلماء والنابغين فى كل علم وفن .

فلئن لم يكن للأنبياء أن يزيدوا على رسالتهم أو ينحرفوا عنها . فأحر بالقادة أن تضيق دائرتهم وأن يكون للشعوب أمامهم قدراً أعظم من الحرية ليس فحسب بإلزامهم آداب القيادة التى أشرنا إليها فى فصل سابق ، بل أيضاً بمنحهم الحق فى أن يثوروا عليهم ، بل إنه يوجبه عليهم إيجابا ، فإذا لم يفعلوا قصروا فى استخدام حقوقهم ، وشاركوا فى مسئولية بغى القادة وفسادهم .

وليس أدل على ذلك من أن القرآن لا يعيب على الشعوب شيئا كما يعيب عليها استخذاءها للحكام وخضوعها للقادة ، فى غير ما أمر الله أو أوجب دستوره والاعتذار بالحجج الواهية « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً إلا المستضعفين من الرجال

---

(١) لعل مما يفهمنا حكمة ذلك أن العقل البشرى قد حفظ بالفعل رسالة الأنبياء ، واختراع المطبعة ، واختزال الأبعاد ، وارتباط العالم حال دون تحريف الرسالات النبوية ، وأمكن تبليغها إلى العالم كله دون الحاجة إلى أنبياء ، كل فى قومه ، أما قبل ذلك فقد حمل الاسلام نفسه دعوته بالفتوح والتبشير إلى كافة أنحاء العالم .

والنساء والولدان الذين لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا أولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة . ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيما » .

ومما يستحق التأمل أن كل الأنبياء تقريباً ابراهيم ونوح وموسى وعيسى ولوط قد هاجروا ، كأن الهجرة مرحلة لازمة من مراحل كفاح الرسالات النبوية ، الأمر الذى يصدق أيضاً على كل دعوة مخلصة جديدة ، حتى أصبحت الهجرة والاغتراب إحدى قرائن الدعوات ، ودلائل صحتها وإصالتها .

على أن الهجرة ليست إلا أضعف الإيمان ، والمرحلة الأولية من مراحل الجهاد الشعبي عند ما يكون عدد المؤمنين من الضآلة بحيث لا يستطيعون أن يقوموا بجهد يذكر . أو يخشى على حياة القادة والزعماء ، فتجب عليهم الهجرة حتى يحفظوا الأمانة ، ويضمنوا بقاء الدعوة التى يدخرونها بين جنباتهم ، أما بعد ذلك فليس إلا القتال ، أو باللفظ المتداول « الثورة » .

« ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم ؟ وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ، أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين »

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا » .

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » .

« لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم . وكان الله سميعا عليما » .

ولا يخفى على القارىء ما فى هـذه الآيات من حث قوى واضح ومن استفهام إنكارى وتبكيت ضمنى واختيار للالفاظ الحية التى تعطى الصفة الشعبية، وتصوير ما يحيق بالشعوب من ظلم أو اضطهاد ، وما يقع عليها من ضعف كـكلمات المستضعفين ، الرجال ، والنساء ، الولدان ، القرية الظالم أهلها ، الذين أخرجوا من ديارهم ، ثم هو يقرر فى الختام دفع الناس بعضهم ببعض ، وأن الوسيلة لرد عدوان العادى وحفظ الذمار ، ولولاه لهدمت بيع وصوامع ومساجد ، يذكر فيها اسم الله .

وعاب القرآن على المؤمنين الخوف من القتال والإحجام عنه ، فقال « يا أيها الذين آمنوا ، ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ، ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شىء قدير » .

« فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون » .

« ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل . والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا » .

« فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك . وحرض المؤمنين عسى الله أن

يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا » .

«لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى . وفضل المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما » .

« ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما » .

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

« ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا ومالنا لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا . فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين » .

« وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » .

« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب للايمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون » .

وصور القرآن فى عدة آيات النقاش الذى يدور فى النار بين المستضعفين والمستكبرين ، بين الشعوب والقادة حول مسئولية الضلال والانحراف على

من تقع ، الضعفاء يعتذرون بأن الكبراء أغروهم ، والكبراء يتنصلون ويشتغلون بأنفسهم عن غيرهم ، ووضح القرآن أن هذا الإعتذار من إغراء أو تسليم أو وعد أو وعيد أو استخذاء أو تبعية لا تعفى الشعوب قط من المسئولية أو ترفع — أو حتى تخفف — عنهم العذاب .

« ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار . كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فأتهم عذاباً ضعفاً من النار . قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » .

« ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول . يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم . بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار . إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً . وأسروا الندامة لما رأوا العذاب إذ يتحاجون فى النار . فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً لكم فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها . إن الله قد حكم بين العباد » .

« وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس فنجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين » .

« قالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً » .

« وبرزوا لله جميعاً . فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً

فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء . قالوا لو هدانا الله لهدينا كم . سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص » .

« إذ تبرأ الذين أتبعوا من الذين اتبعوا . ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم . وما هم بخارجين من النار » .

« وما أضلنا إلا المجرمون . فمالنا من شافعين ولا صديق حميم . فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين » .

« وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فالقوا إليهم القول إنكم لكاذبون » .

وليس هناك ما هو أشد وضوحاً ، ولا أقوى تصويراً لمسئولية الشعوب ومغبة تسليمها ، وحسرة خضوعها من هذه الآيات .

فلو أن الشعوب الإسلامية كانت تقرأ القرآن بغير القلوب المقفلة ، والضمائر الخاملة ، لكان لها منه وازع أى وازع ، ودافع أى دافع ، للتخلص من ربقة السادة والتحرر من طاعة الكبراء ، والنجاة من مصير المشركين .

— ٤ —

مسئولية الشعوب الايجابية عن الانحلال : محاربة الدعوات

هل معنى ذلك أن مسئولية الشعوب عن الانحلال تقتصر على الخضوع والاستسلام للطغاة والملوك والأمراء والصدوف عن القتال ، والزهد فى المشاركات الاجتماعية الواجبة ، والانزواء فى أصداف الطاعة النتنة ، حرصاً على أكل العيش ، وشرب الماء ، كأنما ارتد الإنسان حيواناً أو مسخ قرداً

لا هم له إلا الأكل والشرب ، ولا حفاظ له يرعاه إلا الفم والفرج . . . ؟ ؟

نقول إن مسئولية الشعوب لا تقتصر على ذلك بل إن لها أيضاً نصيب — كالقادة — فى رفض الدعوات وحرب المصلحين وعصيان الأنبياء ، فيا عجباً للشعوب تستعجل السيئة قبل الحسنة ، وتدعو إلى النار من يدعوها إلى الجنة وتكون لظالميها ظهيراً على دعاة الإنقاذ والحرية .

حقاً إن هذا أمر يشكل على الباحث ، فمن المعقول أن يحارب الكبراء والمترفون والأغنياء والكهنة ومن إليهم الأنبياء والرسل والمصلحين الذين يحررون القطيع البشرى ، ويبددون ظلمات الجهالة المطبقة عليهم ويرفعون عنهم إصرهم والأغلال التى عليهم ، أما أن تشارك الشعوب فى ذلك ، وتظاهر ظالميها على محرريها فهذا أمر عجاب .

لكى نفهم كيف يتأتى ذلك .. يجب أن نقدر قيمة العوامل الضاغطة على الشعوب . وفعل العمل المنظم الذى ينتظم جماهير الناس ويسلط بعضهم على بعض وأثر الترويض الذليل الذى يفرض فرضاً على الأغلبية الساحقة من الناس من المهد الى اللحد .

لهذه العوامل قوة طاغية . ولما كانت القلة هى التى تنظمها لحسابها فإنها تهدف بها إلى تحطيم كافة قوى المقاومة فى النفس وإمحاء المميزات الفردية ، وصهر الشخصية الخاصة فى بوتقة القطيع ، لا يستثنى من ذلك الأعمال التنظيمية ذات المظهر الشعبى . كالانتخابات مثلا التى تكمن وراءها القلة تديرها لمصلحتها .

انظر إلى قوة العمل المنظم فى الجيش والبوليس ، لماذا تحارب تلك الجموع الكثيفة ، والقطعان المقادة — الجيوش — بعضها بعضاً ؟ إن من

المؤكد أن الجنود لا يفهمون شيئاً فى السياسة العليا ، ولا يرون مبرراً لكى يضحوا بنفوسهم الغالية ويقتلوا غيرهم ، وإنما قيل لهم اذهبوا ، فذهبوا ، صدرت إليهم الأوامر ، فانتظموا فى موكب الموت أشد انسياقاً من قطيع من الحملان ، يذهب إلى المرعى ، ولعلهم ليسوا فى حاجة دائماً إلى إصدار الأوامر ، لأن الأوامر قد غرست أغواراً عميقة فى نفوسهم وتفكيرهم ، ومرتهم مراناً آلياً ، فما أن يرى الجندى ضابطاً حتى يرفع يده بالسلام العسكرى ، دون أن يطلب إليه ذلك وإذا عوتب فى أمر ما صرح بأعلى صوته انه « عبد المأمور » دون أن يستشعر مهانة أو ذلة .

فإذا أردت أن تعرف مصدر هذه الطاعة وسرها ، فانعم النظر فى المران العسكرى ، وحلل طرق « الضبط والربط » ابتداء من ليلة التجنيد الأولى ، حتى الليلة الأخيرة ، إن كل حركة منها ، من قص للشعر ، أو إلزام للتقشف ، أو أمر بالطاعة العمياء ، أو فرض لأساليب الضرب والشتم ، أو تجريد لحق الاعتراض ، ومنح من هو فوقه « بشريط » حق الحبس ، والإيذاء ، والعقاب ، ثم بعد ذلك هذه « الطوابير » المتتالية . إن كل إجراء من هذه الإجراءات إنما قصد به الإذلال وهدم الشخصية ، والبطش بأى معنى خاص أو اعتزاز أو تحرر ، وتحسين الطاعة والنظام كأنها الفضائل الحقة . هذه هى الوسائل التى تجعل من جندى الجيش « نفر » ، أو « دفعه »[1] ، وتصيره رقماً يندمج بدون تمييز فى الرقم الكلى فلاينظر إليه كانسان أو إرادة ، وإنما أداة وحسب ، فإذا صدرت الأوامر إليه باطلاق الرصاص ، أطلقه ،

---

(١) لعل تداعى المعانى يذكرنا بلفظة أخرى تطلق على قطيع آخر من الإنسانية المسخرة ، لفظة « الإيراد » التى تطلق على مسجونى اليوم . إن تجرد هذه الألفاظ من من الدلالة الإنسانية ، ومعناها الجماعى المادى يستحق التفكير حقاً .

ولو على آله وإخوانه ، وإذا قيل له « إضرب يا عسكرى » شرع عصاته وأخذ يضرب بلا رحمة ، وإذا طلب إليه اقتياد عشرة أو عشرين من الشحاذين أو الباعة المتجولين ، قادهم دون أن ينال منه حالتهم البائسة وفقرهم المدقع ، وإذا ارتفع صوت البروجى نفذت إشارته بطريقة لا شعورية ، كأنما هو صوت القضاء والقدر ! فعند ما حاول الخديوى توفيق ورياض باشا تهدئة ثائرة الجنود المتمردة فى الآلاى الثالث قبيل مظاهرة عابدين (٩ سبتمبر سنة ١٨٨١) المشهورة ، وأطال معهم الحديث ، ضرب البروجى نوبة « سونكى ديك » ، فركب الجنود فوراً السونكى فى رؤوس بنادقهم . وكانت هذه النتيجة انتصاراً باهراً للأوامر المجردة ولسلطة البوق على كل العواطف الشخصية والمشاعر الخاصة ، التى ولا بد أثارها حضور سيد البلاد الشرعى ، واسترضائه للجنود .

وليس من الضرورى أن يكون الفرد عضواً مجنداً فى الجيش لكى تمحى شخصيته . إن نشأته فى بيئة قاسية ضيقة رتيبة تنتهى به إلى النتيجة نفسها كما فى أبناء الرقيق الذين كانوا ينشئون فى بيئة العبودية وأبناء الطبقات الدنيا الذين يربيهم آباؤهم ليكونوا خدماً لأبناء سادتهم ، كما أنهم هم أنفسهم خدم لهؤلاء السادة . وهو وضع للأسف الشديد منتشر فى كثير من البيئات الشعبية (١) ، التى ينشأ جمهورها على الاستكانة إلى الواقع والرضا به ، وتكيف شخصياتهم على هذا الأساس .

يهتف مصلح جرىء بالفلاح المسكين الذى قضى سحابة عمره يحرث قطعة

---

(١) إن كلمات « سيدى » و « ستى » التى ينطق بها الخدم والأتباع فى مصر ويمنحونها طواعية حتى لأطفال وبنات الأسر التى يخدمونها ، هى خير دليل على مدى الاستكانة إلى الوضع ، وتأثير البيئة .

صغيرة من الأرض ارتوت بالعرق أكثر مما ارتوت بالماء « أيها الفلاح الذى تشق الأرض بمحراثك ، لماذا لا تشق به قلب مستعبدك ؟ »[١] . فماذا يجد ؟ يجد ابتسامة بلهاء ، لا فهم ولا صدى ولا استجابة ، ويحس كأنه يتكلم بلغة أجنبية . وإذا أوعز الملاك إلى هؤلاء الفلاحين أنفسهم بقتله قتلوه ، ولن يطلبوا لذلك إلا ثمن العيار . ومن أجل هـذا لا يخشى الملاك المصريون دعاة الشيوعية فى الريف المصرى البائس ، لأنهم يعرفون أن « دية » كل داعية هى بضعة مليمات !

لقد انحدرت العبودية إلى هؤلاء الفلاحين لا فى أصلاب آبائهم وأجدادهم — رقيق الأرض السابقين — ولـكن فى ثنايا الترويض التربوى والنظام الاجتماعى والاقتصادى الذى يفترض وجود سادة وعبيد . وما دام مثل هذه النظم موجودة ، فلا بد أن يوجد العبيد فى شكل فلاحين وأجراء ، لأن العبد كائن اجتماعى ، وليس كائناً طبيعياً [وهل يوجد فى مملـكة النبات والحيوان سادة وعبيد] . وحياة هذا الـكائن فى بقاء النظام ، وموته فى هدمه ، وذلك ما اهتدى إليه ببداهة الفنان ، توفيق الحـكيم فى شهرزاد ، إذ عند ما يخشى العبد أن يقتله الملك ، تسأله شهرزاد :

— هل تعرف كيف يقتل العبد ؟

— كيف . . . ؟

— بتحريره !

***

وفيما عدا ذلك فهناك عوامل أخرى تجعل الشعوب والجماعات تظاهر

(١) الـكلمة ، أصلا ، للسيد جمال الدين الأفغانى .

مستعبديها ، وتقاوم محرريها ، وتستكين إلى الوضع القائم على ظلمه ، وتنفر من الوضع الجديد على عدله . . .

من هذه العوامل ان القلة الحاكمة ، دائما غنية لديها المال . وهى تصطنع فريقاً كبيراً من غمار الشعب تمنحه القليل من المال وتبيحه جزءاً من السلطة فيكون لها الخادم المطيع والحارس الأمين . وقد كانت الجنود قديماً مرتزقة تشرع رماحها لحساب سيدها ، تحارب من حاربه وتسالم من سالمه ومثل هؤلاء الجنود المرتزقة نظار المزارع والتفاتيش ووكلاء الدوائر الذين يتعسفون فى جمع القروش لسادتهم من الفلاحين ويتفننون فى طرق العسف والظلم إرضاء لرؤسائهم ومثلهم أيضاً هذا الجيش اللجب الذى يستخدمه الرأسماليون من رؤساء عمال وأمناء مخازن ، وبوليس سرى ، ومراقبى حسابات الخ ، ومهمتهم جميعاً استثمار الثروة الكبيرة وتنميتها وحفظها والدفاع عنها . وبهذه الطريقة الشيطانية يضمنون أن يعمل رؤساء العمال — وهم من العمال أولا وآخراً — لحسابهم لا لحساب العمال . وأن يضعوا فى خدمتهم خبرتهم الشعبية وفهمهم لطرائق العمال . وقس على ذلك بقية الرؤساء فى كل الطوائف الذين ينتزعون من الغمار ليصبحوا حاشية الرأسمالى والكبير ووسيلته فى حكم الشعب .

وقد يظن أحد ان من الممكن أن يخدم شخص ما الرأسماليين والسادة . ويضع نقودهم فى جيبه ثم يستغفلهم ، وهذا مستحيل . لأنه لن يكون حراً . وستقيده طبيعة العمل واللوائح والنظم وطرق الجاسوسية . فضلا عن أن أموال الرأسماليين محروسة بقوات الحرص والشح والجشع وهى قوات حساسة يقظة . لا يمكن أن تستغفل . وما من رأسمالى يعطى أجراً إلا وهو يتأكد أنه سيكسب أضعافه باسترقاقه للموظف وتحكمه فيه . وهو مصيب ولا شك .

وقد ثبت ان كون « الموظف » من الطبقة نفسها التى يسلط عليها ليس

من شأنه أن يعرضه للتفريط فى حق الرأسمالى ، أو الميل إلى جانب طبقته . بل هو على العكس يكون أشد إفادة للرأسماليين من غيره ، أولا لأنه سيكون من ذوى الخبرة المباشرة . وقد كان أشد الرقباء عنتاً للصحافة وتضييقاً على الكتاب هم من كانوا من قبل صحفيين أو كتاباً ! كما أن شخصاً مثل حسن رفعت باشا — مستشار شيكوريل — استطاع أن يستغل خبرته البوليسية كوكيل سابق للداخلية فى أن يؤكد أن نسف هذا المحل سنة ١٩٤٨ لم يكن بلغم هوائى كما أذاعت الحكومة ! وما من أحد غيره كان يستطيع أن يقول ذلك . وثانياً لأن مثل هذا الموظف سيعمد إلى الشدة وطاعة النظم لأنه يخشى الظنة ويعلم أنه لانتسابه للطبقة الفقيرة مرشح للاتهام بالتشيع لها . وهو يقدم سلفاً ما يدحض هذا الاتهام ! . ولعل هذا أحد الأسباب التى تجعل العسكرى أسوأ من الضابط .

وأغلب الظن أن العبيد والغلمان الذين أطلقهم سادة ثقيف فى أثر محمد صلى الله عليه وسلم عند عودته من رحلة الطائف ، لو تركوا لأنفسهم لآمنوا ولجمعتهم به أكثر من آصرة واحدة . ولكن وضعيتهم فرضت عليهم حربه فحاربوه .

وكما يستأنس الانسان فصائل من الحيوان ، ليستخدمها ثم يذبحها ، أو يحارب بها الفصائل الأخرى ، فكذلك يستأنس الرأسماليون أفراداً من الطبقات الدنيا ويطلقونهم عليها ، وهنا يحدث فى المجتمع الانسانى ما يحدث فى مملكة الحيوان ، فأشد الحيوانات على الذئاب هى الكلاب : فصيلتها المستأنسة ، وأشد الموظفين على الفلاحين والعمال هم الطبقة المباشرة لهم المستأنسة منهم ، وقد ترى فى الصور التاريخية تابعاً للملك يحمل بازى الملك المدرب على الصيد ، وهى صورة تمثل استئناساً مزدوجاً ، بل لعل التابع

المستأنس أشد استحقاقا للنظر من البازى المستأنس ، فإذلال وحش قد لا يكون شيئاً ، ولكن إذلال نفس وفكر شىء يستحق التفكير . ولا سيما وأن الإنسان المستأنس لايقل فى التمسك بوضعيته المهينة عن الحيوان المستأنس وتنقلب فى ناظريه مقاييس الأشياء . فالسيد الحقيق فى نظر الخادم هو السيد القاسى ، الشديد ، المبذر ، الذى ينفق بسخاء على ملذاته ، ولا يقصر فى إمتاع نفسه ، ويحيا حياة السادة المترفعين وكلما زاد ذلك كلما تمكن معنى السيادة فى نظر الخادم . ويزلزل هذا المعنى قصد السيد واعتداله ، فإذا تواضع فنزل إلى درجة ملاطفة الخدم ، فإن معنى السيادة يصاب بصدمة تهدده بالزوال وبأن يحل محله احتقار وتهاون بالسيد .

ومن هذه العوامل أن الطبيعة الإنسانية تستجيب لضروب الضغط والقسر ما دامت محتومة عليها . وهى ككائن حى تكيف نفسها حسب البيئة الجديدة ، حتى لا تهلك . وكما يكيف الجسم نفسه عند فقد عضو فتعمل الكلية الواحدة عمل الكليتين . وترهف بعض الحواس عند تعطيل الحواس الأخرى . فكذلك تدفع إرادة الحياة الغريزية الغلابة فى النفس الإنسانية إلى الاستجابة للوضع الاجتماعى وتكييف النفس على أساسه . بل وقد تزيد فتبدع له فلسفة الخضوع والاستخذاء بحيث يجد الفرد مبرراً . ويحس التذاذاً . ويستشعر الزهو فى الوضعية الجديدة فيقول « لى لذة فى ذلتى وخضوعى » ويرى الضيم أنه لا يضام[1] ويبدع من أتفه الأشياء اعتزازاً حتى من الأمور التى من شأنها أن تصم صاحبها بالهوان والصغار ، على حد قول الشاعر :

---

(١) قد تعيش النفوس فى الضيم حتى لترى الضيم أنها لا تضام
« شوقى »

لئن ساءنى أن نلتنى بملامة لقد سرنى أنى خطرت ببالكا

على أن التابع فى العادة لا يعدم أسباباً للزهو الرخيص فما من شك فى أن «الأسطى» خير من العامل، وأن البائع فى محل يتسامى على البائع المتجول وهذا بدوره يرفض أن يتساوى مع ماسح الأحذية . وعندما يرفع حاجب المحكمة صوته بكلمة «محكمة» فيستجيب له الناس بالوقوف، يرضى ذات نفسه ، ويعوض حقارة وظيفته . ولا يهمه بالطبع إذا كانت المحكمة عادلة أو ظالمة ، بل لعله يسر إذا كانت الأحكام قاسية لأنها أبلغ فى الدلالة على سلطة المحكمة وهيبتها ، وبالتالى على أهمية النصيب الضئيل جداً الذى له فيها بصفته حاجباً !! كما يشعر كل من العسكرى . وناظر العزبة بأهميته أمام البائع المتجول ، والفلاح ، ولما كان للخضوع للمأمور أو المالك ثمناً لابد منه للحصول على تلك الأهمية الوظيفية أمام البائع المتجول والفلاح . فهذا الخضوع يؤدى أولا بغضاضة ، ثم بقبول ، ثم برضا ، ثم يثير بعد ذلك زهواً والتذاذاً قدر تبلد المشاعر الأصيلة وزيادة المشاعر الوظيفية ، وبتأثير ترابط الأشياء وتداعى المعانى واعتياده جزءاً لا بد منه فى العملية كلها . ومن هنا نفهم تغالى بعض الناس فى خدمة سادتهم ورؤسائهم حتى ليفوقوا هؤلاء فى خدمتهم لأنفسهم ويصبحوا « ملكيين أكثر من الملك » كما يقولون ، ذلك لأن هؤلاء الأتباع يعملون بوحى مزدوج من لذة الخضوع . واستكمال المنفعة . ولو قضى على سادتهم بالخدمة لصاروا مثلهم . فالنبيل فى العهد القديم كان يستشعر لذة فى خدمة الملك قدر ما كان يستشعر الفلاح لذة فى خدمته . والمأمور حالياً يقف « زنهار » أمام الحكمدار ، كما يقف العسكرى أمام المأمور . وكل منهم لا يرى فى هذا ضيراً ، بل يستشعر زهواً لأن التحية العسكرية جزء من نظام يمنحه صنوفاً من الاعتزازات والتسلطات .

ولقد تتصور أن بيئة عظيمة الانحطاط كتلك التى يعشش فيها البغاء كفيلة بتحطيم كبرياء أصحابها وقتل كل أنواع الاعتزاز فى نفوسهم . ولكن الواقع خلاف ذلك فمع أن البغى فى شهورها الأولى ترزح تحت شعور الضعة والانحطاط ويأكلها الندم والألم ، إلا أن إرادة الحياة الغريزية ، وفعل البيئة المستمر ينقذانها من هذا الألم الجدير بالقضاء عليها . ويوجدان لها أنواعاً من الاعتزاز والكبرياء ويجعلانها تتقبل هذه الحياة . بل وتتحمس لها وتتمسك بها [ما دامت تعلم أنها محتومة عليها لتلك الأسباب التى تحتم البغاء فى المجتمعات المنحلة] فلا تلبث الفتاة الطاهرة الغريزة أن تنقلب إلى بغى لعوب ثم إلى « معلمة » صناع تتفنن فى شئون مهنتها التعسة . وتجعل همها إيقاع البريئات المسكينات فى شباكها . فإذا تحدث إليها متحدث عن الشرف والضمير أو رغب فى إنقاذها . ولو حتى بالزواج لرفضت . فقد مرنت حواسها ونفسها على هذا النوع من الحياة ، ولا تستطيع أن تغيره أو ترغب فى بعث كوامن الندم التى استكانت وتكومت فى جزء قصى من لاشعورها وانغمرت تحت أكداس الحاضر . وقد وضح ذلك « تلستوى » فى روايته «البعث» تمام الإيضاح . كما كانت دائماً تقارير لجان إلغاء البغاء صريحة فى عدم استطاعة إصلاح هؤلاء البائسات أو إلحاقهن بأى عمل .

ولعل هذا هو سر تحذير التشريع الإسلامى من الخطأ الأول . وبنائه تحريم الكثير على القليل . لأن الخطأ الأول سيثير فى النفس مشاعر التبديد فيهون وقعه ويصبح احتمال تقبله مرة أخرى بهوادة احتمالا محققاً ، أو شبه محقق . وهو أيضاً مغزى تلك الألفاظ والجمل التى يوردها القرآن ويُعزى إليها جزءاً كبيراً من أسباب الضلال وتبرير الصادرين لأفعالهم « مكر الليل

والنهار » « بل ران على قلوبهم » « طال عليهم الأمد » .

وأخيراً فإن الأفراد فى جملتهم ارتقائيون ، فلسفتهم التقدم والنظر إلى الاكتمال . أما المجتمع فى كليته فجامد ، فلسفته الثنائية والاستقرار والنفور من كل جديد « والفرد من ناحية أنه وحدة مستقلة فى الحياة العضوية يسبق بفكره الجيل الذى يعايشه . أما الجماعات فهى فى الغالب منبتة عن المدى الذى يصل إليه خيال الأفراد[١] » .

لذلك تقاوم الشعوب والجماعات الدعوات الجديدة حتى إذا كانت شعبية وتنحاز الكثرة نحو المعارضة ، ولا يؤمن بها إلا أفراد قدر لهم أن لا يقعوا تحت تأثير العوامل الاجتماعية السابقة أو عظمت فيهم المواهب والمدارك حتى تغلبت على ما عداها من الآثار[٢] .

تلك هى آثار البيئة التى تطبع الجماهير والجماعات بطابعها وتكييف النفس الإنسانية ، وتمسخ كثيراً من الطبائع الأصيلة معها . وكل يوم يمضى ، تزداد قوة هذه الآثار وتتعمق العوامل الاجتماعية فى حياة الفرد . فالمطاعم العامة ودور السينما ، والصحافة ، وكل مكان يحتشد فيه الناس وكل وسيلة من وسائل التسلية تضمن لهم الخلاص من الوحدة المادية والنفسية وتعوض الفقر الروحى والفردى الذى أوجده عهد الآلات والجموع . . . تكثر . . وتزداد . . ويتضاعف كسب الرأسماليين ، وتأثير القادة واستغلالهم لهذه

---

(١) الاستاذ اسماعيل مظهر فى مجلة الكتاب ج ٣ مجلد ١ يناير سنة ١٩٤٦ .

(٢) ولعل هذا هو تفسير ما يتصف به المؤمنون الأول بكل دعوة من عناصر امتياز . وإن كانوا من غمار الناس ولم تقسم لهم الثقافات الرسمية أو المراتب الاجتماعية فإيمانهم وصمودهم دلالة تفوق خلقى ونفسى كبير .

الوسائل ، حتى تهن تماماً مقاومة الشعوب ، ويكون خلاصها منها شبه مستحيل (١) .

* * *

ومن أجل هذا تقاوم الشعوب والجماعات الأنبياء وتعارض المصلحين . وتشارك قادتها فى إعنات أصحاب الدعوات الجديدة . ويمكننا أن نفرق بين مشاركة الشعوب ومشاركة القادة فى القرآن : إما بكلمة الأكثرية التى ينص عليها القرآن صراحة « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا » « فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله . إن يتبعون إلا الظن . وإن هم إلا يخرصون » « ولا تجد أكثرهم شاكرين » « وما وجدنا لأكثرهم من عهد . وإن وجدنا أكثرهم الفاسقين » « ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً » « إن فى ذلك لآية . وما كان أكثرهم مؤمنين » .

وإما بفهم السياق والمعانى لأن حرب الشعوب تعود إلى أسباب تختلف عن الأسباب التى من أجلها يحارب القادة الأنبياء وتتلاءم مع وضعيتهم وبيئتهم . . .

فبينما يحارب القادة عن عمد وإصرار وكبرياء . تستيقن نفوسهم صحة

---

(١) فى عقيدتنا إن هذا الموضوع — البيئة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية — لم ينل من بحث الكتاب ما يستأهله من العناية مع خطورته . ولقد لجأ الروس فى تربيتهم للشعب إلى ما يسمونه سياسة التكييف Conditioning . وهى سياسة استخلصوها من أبحاث العالم الروسى المشهور بافلوف الذى كان يكيف سلوك الكلاب حسب إرادته بتجارب نفسية مبنية على ترابط الأشياء وغيرها .

الدعوة الجديدة . ويجحدون بها مع ذلك ، إذا بالشعوب والجماعات تحارب الدعوات عن تلك الغفلة التى وسمت طويلا القطيع الإنسانى والجماعات البشرية تلك الغفلة التى تلحقهم بقطيع الأنعام — كما لايفتأ القرآن يشبههم — بل لعلهم شر من الأنعام . لأن الأنعام لم توهب الأفئدة والعقول والقلوب التى أنعم الله بها على الإنسان ليفيد منها . . . وينتفع بها . . . تلك الغفلة التى فرضها القادة على الجماهير والسواد فرضاً بأن حرموا عليهم العلم وسدوا فى وجوههم أبواب التفكير وشغلوهم شغلا بمشكلة الرزق والعمل اليدوى المرهق الذى لا يدع لهم وقتاً ولا مجالا للتفكير ، فضلا عن التنظيمات الاجتماعيـة والرأسمالية الدقيقة التى أشرنا إليها والتى تهدف إلى تحطيم مقاومة الفرد .

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها . ولهم أعين لا يبصرون بها . ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون » .

« قالوا ياشعيب ما نفقه كثيراً مما تقول . وإنا لنراك فينا ضعيفاً . ولولا رهطك لرجمناك » .

« فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه . وفى آذاننا وقر . ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إناعاملون » .

« قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً فلم يزدهم دعائى إلا فراراً . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم » .

« قالوا سواء علينا أوعظت أو لم تكن من الواعظين » .

« قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » .

ففى هـذه الآيات جميعاً تتمثل صورة قوية للابتسار الشعبى والفجاجة العامية وإغفال للتفكير والاستهتار دون أى تقدير للعواقب .

وفى آيات أخرى يوضح سـطحية الجماعات وعجزها مرموزاً بالظن أو الشك أو السخرية .

« وإذا قيل لهم إن وعد الله حق . وإن الساعة لا ريب فيها ، قلتم ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين » « وإنا لفى شك مما تدعونا إليه مريب » .

« ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ، ويلههم الأمل فسوف يعلمون ».

« وكم أرسلنا من نبى فى الأولين . وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون » .

« فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون » .

« فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون » .

« يا حسرة على العباد ! ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » .

« أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون».

« ذلك بأنكم اتخذتم آيات الله هزؤا وغرتكم الحياة الدنيا » « وإذا رأوا آية يستسخرون » .

فهذا تصوير للعجز عن القطع والبت وفرار من إبداء الرأى أو إعمال الفكر حتى الوصول إلى النتيجة التى يُطمأن إليها والتعلل بشتى الحجج والارجاء والتسويف والسخرية التى مصدرها مركبات النقص لا التى مصدرها — كما فى سخرية القادة — التعالى والكبرياء والاعتزاز .

وقد يقال ما للشعوب الشقية الكادحة ، والركون إلى اللهو ، أو التعلل بالآمال ! الواقع أن الأكل واللهو والآمال هما غذاء الشعوب . وثمة مثل يقول « لو كانت الأمانى خيولا لركبها الفقراء » كما تبلور الصيحة الرومانية أمانى الشعوب الخالدة فى الشعار المقتضب « خبزاً وألعاباً » التى صورها القرآن بدقة ، مبرزاً زيادة عليها أمانى الغفلة « ذرهم يأكلوا ، ويتمتعوا ، ويلههم الأمل . . » . وقد شاهدنا مصداق ذلك فى جمهورنا . فعندما انثالت على طبقة العمال نقود « الأورنس » أو بعبارة أخرى الأجور المرتفعة للعمل فى الجيش الانجليزى استأثر اللهو بالنصيب الأعظم منها . ممثلا فى النساء والحشيش : فتزوجوا مثنى وثلاث ورباع . وانتشرت أفلام الحرب الراقصة التى كان جمهورها الأعظم هو العمال . ولست أشك فى أن القفزة التى قفزتها الراقصات ، من الحانات المنتنة والمراقص الخلوية إلى أضواء السينما الباهرة والأرقام الخيالية للأجور إنما يعود بالصفة الأولى إلى تشجيع العمال . والأمر كذلك فى تجارة المخدرات ، فالخبز واللهو والتعلل بالأمال هى التعويضات التى تلجأ اليها الشعوب ، بشكل مباشر فيه الكثير من الفجاجة والعنف ، وتهدهد به الوحش الثائر فى أعماقها ، فيتخدر .

وقد يعرفون الدعوة ، ولكنهم ينكرونها إيثاراً للقديم ونفوراً من الجديد « لقد جئناكم بالحق . ولكن أكثركم للحق كارهون » « يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون » ولهذا السبب — إيثار القديم والنفور من الجديد — يشتركون مع القادة فى التشبث بما ترك الآباء والأجداد ، وان لم يترك لهم آباؤهم — على عكس آباء القادة — سوى إرث الشقاء والتعاسة ، ولكنهم يرضون به لأنهم قد مرنوا أنفسهم على ذلك وراضوها ، فمرنت واستراضت .

« إنهم الفوا آباءهم ضالين ، فهم على أثرهم يهرعون » .

« إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » .

وهم لتعطيل ملكة الفكر عندهم يعجبون من أن يرسل الله بشراً للرسالة لا ملائكة ، ويطلبون المعجزات ، بينما يعجب القادة من أن يرسل الله بشراً دونهم فى المركز الاجتماعى ، وبذلك يتفق الطرفان فى حرب الرسول البشرى على اختلاف بواعث هذه الحرب وتباينها .

« إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء الله لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون » « قالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد » « وقالو إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين » « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزل عليه ملك لقضى الأمر ثم لاينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

— ٥ —

صراع الطبقات

فى آيات كثيرة متعددة يذكر القرآن خاتمة المطاف ، وقسوة المصير . ونتيجة مسئولية القادة والشعوب عن الانحلال . وتصوير القرآن لهذه الناحية يحمل القارىء على أن يطيل الوقوف عندها ، ويطبع فى أغوار نفسه خطوطاً عميقة .. لأنه لا يزجى الخاتمة إزجاء ميتاً . أو يلقى بها دون مقدمات كأنها بديهة يسلم بها القارىء ، ويسلم بها من تقع عليه الخاتمة من الشعوب والقادة ، أو يتحدث عنها من وجهة نظرية عقيمة ، لا . . . إن تصوير القرآن

للخاتمة تصوير قوى ، عاطفى ، مثير ، ملىء بصور الصراع ، حافل بالحيوية . إنه يخاطب المشاعر الحساسة ، ويرسم التشبث بالحياة والتهالك عليها ، عند ما تصطدم بقسوة المقادر ، ورهبة المصير . ولا ينهى الخاتمة إلا بعد صراع مرير ، يبلغ ذروته فجأة ، وفى آخر الساعات توقعاً للفاجعة .. الأمر الذى من أجله يرفض القرآن أن يجيب المشركين إلى تحديد ساعة مصيرهم . « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » أو تصدر عما يرجون منه خيراً « فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شىء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين » . عندئذ فحسب تفجأهم البطشة الكبرى والخاتمة العنيفة التى تطيح بكل شىء « بل تأتيهم بغتة ، فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون » .

والقرآن لا يورد ذلك كعمل فنى فحسب ، يرى أن تصويره الخاتمة هذا التصوير يبلغ من المشاعر أقصاها ، ولكنه يهدف أيضاً إلى عدة قيم نفعية ، وآثار عملية ، فإبراز الخاتمة بتلك الطريقة يسهل ضرب المثل للأمم الأخرى فتكون أرجى للخير ، وأبعد عن الشر ، وأعظم استفادة من الأمم التى سبقتها وحق عليها المصير . وهذا الهدف واضح جداً فى الآيات التى تصور المصير « فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق . إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » . « ولقد تركنا فيها آية بينة لقوم يعقلون . وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم » . « أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم . كانوا أشد منهم قوة وآثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها » . « أولم

يروا كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم . إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون » . « وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليما . وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً . وكلا ضربنا له الأمثال . وكلا تبرنا تتبيراً » . « ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون » . « وكم أهلكنا قبلهم من قرن . هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً » . « وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم . وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » . « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » . « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا فى البلاد . هل من محيص » . « كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم . وخضتم كالذين خاضوا أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون . ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم . ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

ومن هنا تتضح لنا الناحية التهذيبية الاجتماعية فى هذه الخواتم الرهيبة . فليس الغرض مجازاة الأمم الجزاء العادل . بل أيضاً ضرب المثل للأمم الأخرى عساها تهتدى .

ومع أن معظم الأمم التى ذكرها القرآن لم تهتد « وكلا ضربنا له الأمثال . وكلا تبرنا تتبيراً » . إلا أن ذلك لا يقلل من قيمة أثر هذا العامل ، بل هو على العكس ، يزيد من قيمته بالنسبة للأمم التى جاءت بعد هذه الأمم كلها .

وسنرى لماذا لم تهتد تلك الأمم التى ضربت لها الأمثال أو تتعظ بما سبقها .

وفائدة أخرى يمكن أن يستخلصها القارىء إذا تتبع آيات الصراع . وتساءل عن الأسباب التى من أجلها يهتم القرآن بإبراز المعنى الديناميكى والحيوى ويطيل فى تصوير الصراع . إنه عندئذ ينتهى إلى اكتشاف فلسفى عظيم الخطر . ذلك أن المنهج القرآنى الفلسفى فى تصوير الحياة منهج جدلى . ولقد كان الفلاسفة المسلمون يستطيعون استلهامه للانتهاء إلى المنهج الجدلى قبل هيجل وماركس . لأن القرآن يبرزه بشكل ظاهر جداً . فهناك أولا تلك الآيات العديدة التى توضح هذا المعنى صراحة . وتذكر أن ارادة الله قد اقتضت هذا الصراع . بل وأرادت أن يستمر إلى أن يحكم الله — يوم القيامة — فيما كانوا فيه يختلفون . « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » « ولو شئنا لأتينا كل نفس هداها . ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى » « ولو شاء الله ما أشركوا » « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . ولا يزالون مختلفون إلا من رحم ربك . ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة . ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء . ولتسئلن عما كنتم تعملون » « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك . وما أنت بتابع قبلتهم . وما بعضهم بتابع قبلة بعض » .

ويظهر القرآن الصراع عريقاً عراقة الإنسان نفسه . فقد بدأ منذ أن رفع ابليس راية العصيان . وسمح الله عز وجل له بأن يجرى أساليبه مع هذا المخلوق السماوى « الإنسان » وبأن يتخذ منه « نصيباً مفروضاً » وأعواناً من كل الطبقات . وتوسل الشيطان إلى ذلك بأن نظم مجتمعاً طبقياً مميزاً

يستغل فيه ما بين أفراد الناس من قوى وملكات ومطامع وأهواء فيرفع طائفة على طائفة . ويضع طائفة فى موضع تجد فيه أن قوامها فى ظلم الطوائف الأخرى . وبث الغرور فى نفوس الأقوياء . والعجز والوهن والاستسلام فى نفوس الضعفاء الخ . . ما أشرنا إليه فى الفصول السابقة . فنتج عن ذلك شياطين الإنس والأتباع الذين يعتنقون الشراعتناقاً ، يدعون إليه ، ويروجون له ولا يزعهم عليهم بالشر عن الإيمان به . ويتخذون عناد الأنبياء والمصلحين خطة دائمة ، وإلى هؤلاء يشير القرآن فى يأس من الإصلاح يكاد يكون مطلقاً .

« سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق . وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها . وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا . وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها . ولكنه أخلد إلى الأرض » « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه بعد الله . أفلا تذكرون » . « كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها » « أتريدون أن تهدوا من أضل الله ؟ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » « إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » « كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم » « إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » « ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا

إلا أن يشاء الله . ولكن أكثرهم يجهلون . وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن » « ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » « إنك لا تهدى من أحببت . ولكن الله يهدى من يشاء » . « ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم . ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » « وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا . وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » « وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون » « وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً » « وقالوا مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا . وكانوا قوماً مجرمين » .

وقد يرتاع الإنسان لأول وهلة ، لهذا الضلال الذى حكم به مؤبداً على هذه الطوائف والأفراد ، أو لا يتصور الأسباب الوجيهة التى تحملهم إلى الضلال . والإصرار عليه . ومحاربة الخير والعدالة . ولكنه لو تعمق فى صميم المجتمع وما يعتوره من نقص وفساد وما فيه من تشابك وتعدد . وما للمصالح من إغراء . وما للأهواء من سيطرة . لحكم بأن المقاييس تهتز بشدة بين أيدى الناس وتتأرجح بين الاعتبارات النسبية . وإن الحياة كلها تهون عند كثير من الناس أمام تمسكهم بالاعتبارات الضالة أو المادية أو الشخصية فليس هناك داع للتعجب من وجود كثرة عاجزة تستكين إلى الشر على علمها به أو قلة تؤمن بالشر وتحترفه ممن تتضافر فيها ، إلى جانب هذه العوامل ، الشذوذ فى الخلقة ، أو العوج فى التربية .

ولما كان الشيطان خالداً إلى يوم القيامة ، فمعنى ذلك بقاء الصراع إلى

يوم القيامة ، وهذا أيضاً ما يبدو مروعاً لذوى النفوس الحساسة الساذجة السطحية .

ولو تعمقت لأدركت أن كنه هذا الصراع هو ميزة الحياة الإنسانية ، التى يفضل بها حياة الجماد والحيوان . الحياة لغاية وهدف وإرادة . إن الأكل والشرب والنمو والتناسل تشاركنا فيه الحيوانات ، بل والنباتات ، أما معركة المبادىء ، وأسلحة الفكر ، فهذه ما يتميز بها الإنسان وينفرد .

وهنا نلحظ أفضلية تصوير القرآن للصراع وحتميته على تصوير ماركس ، وهيجيل له ، لأن ماركس قد جعل الصراع يدور حول العامل المادى ، ولأن هيجيل قد التمس النهاية له . أما القرآن فقد جعل الصراع حول « الفكرة » وبرأ من ربطها بالدولة كما فعل هيجيل . وما من شك فى أن الصراع حول الأفكار أكثر انسانية من الصراع على الماديات . وقد ركز ماركس الانبعاثات الانسانية فى العامل المادى . أما القرآن فركزها فى العامل الذاتى بأسره أى غلبة الذات على الحقيقة الموضوعية . فطوائف القادة من ملوك وأغنياء وكهنة يغلبون ذواتهم ، والشعوب تتحايل على إشباع هذا العامل أيضاً بابداعها فلسفة الضعف والاستخذاء ، وبذلك تشارك القادة فى المسئولية . ومع أن الصراع ينحصر بين طبقتين : طبقة المهتدين ، وطبقة الضالين . إلا أن كل طبقة منها تشمل طوائف اجتماعية واقتصادية وسياسية مختلفة . ومن هنا يشمل الصراع العناصر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . ولو وصل ماركس إلى ذلك لكان عليه أن يضع برنامجاً سياسياً واجتماعياً لفلسفته كما وضع لها برنامجاً اقتصادياً ، ولكان عليه أن يؤمن — أو يؤم — القوة كما أمن — وأم — الثروة .

وليس معنى هذا أن القرآن يجحد أثر العامل المادى . فقد وضحنا فى الفصول السابقة كيف كان وازع الربح سبيلا إلى الطغيان . وكيف أن مسئولية الأغنياء لا تقل عن مسئولية الملوك والأمراء . كما وضحنا أثر البيئة المادية فى هؤلاء أيضاً وقد قدم القرآن قارون على فرعون فى إحدى الآيات « وقارون وفرعون وهامان . ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض . وما كانوا سابقين » . والعامل المادى عامل من عوامل الانحلال لدى القرآن . كما هو لدى ماركس ولكن القرآن يرى أن العامل المادى نفسه إنما يعود إلى الفسوق عن الدساتير الإلهية ومخالفة شرائع الأنبياء . فالسبب الأصيل هو الفسوق والكفر ولو اتبع القصد الذى أمرت به الأديان جميعاً لما كان العامل المادى عاملا من عوامل الانحلال .

— ٦ —

النهاية ... ثم البداية

أخيراً تأتى النهاية ، بعد أن رفضت الشعوب والقادة دعوات الأنبياء ، ونداءاتهم الحارة التى أخذوا يوجهونها إليهم فى اناة ، وصبر « . . يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة . لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون !! » « ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة . وتدعونى إلى النار » « قال يا قوم إنى لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعوه يغفر لكم ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون . قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهاراً فلم يزدهم دعائى إلا فراراً . وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكباراً . ثم انى دعوتهم جهاراً . . ثم انى أعلنت لهم وأسررت لهم اسراراً . . » .

والنهاية فى القرآن تستحق وقفة قصيرة ، فهى دائماً تتسم بطابع حاسم . إذا جاءت ساعتها فلا تستأخر ولا تستقدم ، ولا ينظر أصحابها ، بل ولا يأس عليهم أحد . وهى بعيدة كل البعد عن فكرة المهادنات والمساومات والميوعات وهى تأخذ شكلا مدمراً فى كل الأمم التى أورد القرآن قصصها اللهم إلا قوم يونس ، كأن الخاتمة الرهيبة نهاية لازمة لكل طغيان .

وقد تنوعت صور المصير فى القرآن على اتفاقها فى هذا الطابع « . . فأما عاد فاستكبروا فى الأرض وقالوا من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون » .

« كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم إعجاز نخل خاوية » « فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها . وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن فى ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لسبيل مقيم » ،

« لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال . كلوا من رزق ربكم واشكروا له . بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل » .

« فكلا أخذنا بذنبه . فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً . ومنهم من أخذته الصيحة . ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا . وما كان الله ليظلمهم . ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »

وبعض الناس لا يفهمون هـذه المصاير القاسية من ناحيتى الحكمة . والعدالة . فهم لا يرون صلة بين عصيان شعب لنبى من الأنبياء . وبين حدوث زلزلة أو طوفان أو ريح ، وهم كذلك يستفظعون هذه الكوارث القاسية كمصير ، أو طريقة تأديبية .

ومن العجيب أن يسلم الرجل العلمى بأن سبب هذه المصاير جغرافى بحت ثم لا يفتقد معانى العدالة فى اجتياح هذه الكوارث للآمنين من أهلها . إن القرآن ، وإن لم يقل إن هذه الكوارث قد تمت بطريقة خارقة للأسباب الطبيعية — إذ أن ذلك يخالف قاعدة أساسية للقرآن هى الأخذ بالأسباب — إلا أنه يوضح لنا ما لا يستطيع العلم توضيحه . وهو ان هناك ترابطاً بين العصيان . وبين الجزاء الذى مثلته الكارثة ، وما من شك فى أنه مما يريح النفس أن تعلم ان الحوادث لا تجرى خبط عشواء . وإن عوامل الطبيعة تخضع لإرادة عليا ، منظمة عادلة .

وأما من ناحية العدالة . فأظن ان من الوقاحة أن نتساءل عن عدالة مثل هذا الجزاء بعد أن استبحنا لأنفسنا الحق فى إلقاء قنبلة ذرية تأتى على الأخضر واليابس لأسباب سياسية واهية .

على أن القرآن ، فى الواقع ، يشير بهذه المصاير إلى قانون اجتماعى عظيم هو تطور المجتمعات الإنسانية ، وسقوط جماعات ليخلفها جماعات أصلح منها . إن فناء العاجز وبقاء الصالح . قاعدة واضحة جداً فى القرآن ، وكان لابد من أن تبيد الجماعات الفاسدة ، ليقوم على أطلالها أجيال أصلح منها ، كما أن خلف هذه الأجيال ، عند ما يصاب بالعقم والعجز والضعف يكون قد قضى على نفسها . بمصير أجداده الذين ورثهم . ويكون عليه أن يخلى المكان ، أمام أجيال أخرى .

إن هـذه الفكرة الموضوعية من الأفكار القيمة التى يبرزها القرآن . والتى تتفق مع موضوعيته ، فكل الأمم سواء أمام القرآن ، إذا صلُحت كتب لها البقاء . وإذا فسدت قُدر عليها الفناء ، ولا نجد فى القرآن مانجده فى التوراة مثلا من ايثار الله عز وجل لشعب مختار ، فوق كل الشعوب .

وهكذا يربط القرآن النهاية بالبداية ، النهاية الشائخة المدبرة ، المولية ، بالبداية الشابة ، الناهضة ، المقبلة ، ويصور حلقات الزمن ، وسلاسل الأمم ، والشعوب ، بعضها يقوم على أنقاض بعض ، يرثون أرضهم ، ويسكنون مساكنهم : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض لله يرثها عبادى الصالحون » .

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » .

« ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا . وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » .

« وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة . وأنشأنا من بعدها قوماً آخرين » .

« فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً » .

« فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم كذلك واورثناها بنى اسرائيل » .

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم

الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

« كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » .

« فخلف من بعدهم خلف ، ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون سيغفر لنا » .

فالحياة الإنسانية فى هذه الآيات امتحان ، وشوط له غايته المحددة ، المعلومة ، إذا أدتها الأمم سارت وانتصرت وضمنت البقاء ما بقيت كذلك ، وإلا استحقت الفناء وورثها قوم آخرون ، ويكون فناء الأولين بذنوبهم ، وبقاء الآخرين بحسناتهم هو جمع بين العدالة ، وبين الحيوية ، وما القرون الأولى على قسوة ما حاق بها إلا كما قال القرآن .. « بصائر للناس وهدى ، ورحمة ، ولعلهم يتذكرون » فى هذه الكلمات أجمل القرآن قصة المصير ، ووضح كيف أن تدمير القرون الظالمة ، يكون هدى ورحمة وباعثاً على التذكرة ، كما يكون فى القصاص حياة ، وكما يكون فى القسوة ، رحمة إذا قصد بها الزجر .

خاتمة

وأداء واجب

كتبت كلمات هذا الكتاب فى فترات متقطعة من عام ١٩٥١ والأحكام العرفية مسدلة أستارها الكثيفة على حرية الفكر « والاستبداد فى عنفوانه . والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد . والناس له عبيد أى عبيد »[١] . وما كنت أطمع فى نشره وإذاعته إلا بطرق أتكلف فيها الكثير من العنت والإرهاق ثم لا آمن بعد ذلك المضايقة والمصادرة والمحاكمة . فظل وديعة الأدراج المقفلة . لا أعود إليه إلا عند ما تضيق النفس ، وتثور الحواس . وتشتد الأحداث . فأضيف كلمة هنا ، ونبذة هناك . وبذلك قدم إلى هذا الكتاب خدمة كبرى فى معتقلى الكبير كما قدم لى كتاب « قادم من الطور »[٢] الخدمة نفسها فى معتقلى الصغير .

ولست أنسى أوقات كانت الكتابة فيها فثاً لغيظ ، وفصداً لدم ، وتهدئة لتفزز ، كما لا أنسى أوقات أخرى كانت مطالعة القرآن الكريم وتدبره من الزاوية التى اتخذتها فى هذا البحث فتوحاً وفيوضاً واكتشافات كلها تؤيد الفكرة الشعبية حتى وجدت نفسى ذات يوم أشمئز من الركوب فى إحدى هذه العربات الفارهة اللامعة التى تتهادى فى خيلاء ، وسط الحافين العارين . وتوجيهات القرآن للقادة والشعوب تطن فى أذنىَّ وتكاد تخرقهما .

---

(١) من كلام الشيخ محمد عبده فى سيرته .

(٢) كتاب للمؤلف يتضمن يومياته فى معتقل الطور . ولم يطبع بعد .

فلهذا الكتاب فضل مضاعف علىّ : فضل ككاتب يستنجد بالكتابة فى ساعات اليأس والضيق فتنتشله من الهاوية ، وتصعد به إلى عالم النضال ، وترد عليه الآمال . وفضل كرجل شعبى ترتد إشعاعات الآلام المحرقة المضنية على نفسه ، وتتهاوى على رأسه مطارق الحياة وتملأ أذنيه صليل قيود للمجتمع لا حد لحلقاتها ، ولا نهاية لسلاسلها .

ولما أذن الله أخيراً بنهضة الجيش بهذا الانقلاب الخالد الأغر ، ومضت أيامه الأربعة التاريخية من بدء الحركة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ حتى تنازل الملك فاروق فى ٢٦ يوليو وتوالت الانتصارات الشعبية ، من إلغاء للبوليس السياسى ، إلى محو للألقاب ، إلى تحديد للملكية . عدت إلى أوراق هذا الكتاب ، أرى من الحق أن يبصر نور المكاتب ، وينتقل إلى أيدى القراء ، بعد أن احتبس طويلا فى الأدراج ، كما احتبست معانيه فى النفوس .

ولست الآن بصدد تقدير عمل الجيش ولا اليد التى أسداها إلى البلاد طائفة من أكرم شبابها عليها ، وأقربها رحماً بها ، وأعظمها شمولا لفضائل المصريين التليدة . ولكنى أقول مجملا إنها خطوة حطمت السدود أمام الإصلاح ، وقفزت بالبلاد سنين طويلة . ويد لهؤلاء الأبطال فى عنق كل حر كان يضيق بالظلم ويعمل على رفعه ، فأدوا له ما كان يتوق إليه ، وعرضوا أنفسهم للتضحية والفداء بدلا منه .

ولقد فكرت فى أن أهدى هذا الكتاب إلى بطلنا محمد نجيب وزملائه الأحرار كتعبير متواضع عن شكرى . . وتقديرى ، ثم رأيت أن أبقى على الإهداء الأول بما فيه من استثارة دائمة للشعب .. والشعب بعد ، سيد الجميع وكلنا نستمد فخرنا من الانتماء إليه والالتصاق به ونقيس فضائلنا بدرجة

محافظتنا على شرفه ورعايتنا لحقه .. وطاعتنا لإرادته .. ورأيت أن أوثر أبطال الجيش بكتاب خاص يظهر فيه الشكر والتقدير بشكل أبرز من الإهداء ، وذلك بتقديم النصح .. وذكر الخبرة وهذا ما آمل أن تتضمنه دفات « ترشيد النهضة » الذى سيظهر قريباً إن شاء الله .

* * *

وبعد فها هو ذا « مسئولية الانحلال » كما كتبت فى تلك الأيام المكفهرة القاتمة .. لم أغير فيه حرفاً لأننى أريد أن يصور انطباع الانحلال ليكون فيه — ونحن نستشرف آمالا عظيمة — عظة .. وعبرة وحافزاً على التقدم وعصمة من الزلل .. وحائلا دون الاستخذاء والاستسلام والاستهانة .

جمال البنا

القاهرة فى { ٥ من ذى الحجة سنة ١٣٧١
{ ٢٦ من أغسطس سنة ١٩٥٢

فهرس

صفحة

إهداء : إلى الشعوب ٣

مقدمة ٥

الباب الأول

عنصر المسئولية فى القرآن الكريم

تصوير المسئولية فى القرآن ١٢

وجود المسئولية وتوكيدها ١٣

مدى شمول المسئولية ١٥

المسئولية واقعة على المسئول وحده ١٩

الإغراء لا يعد مبرراً للإعفاء ٢٤

إعفاء السهو والخطأ ٢٧

الباب الثانى

مسئولية القادة عن الانحلال

القادة والقيادة قديماً وحديثاً ٣٢

أهمية القيادة ومدى تأثيرها على الشعوب ٤١

رسالة القادة وتوجيهات القرآن للأنبياء ٤٧

صفحة

أثر هذه التوجيهات فى النهوض بالقيادة الإسلامية ٥٤
كيف ينقلب القادة دعاة انحلال ٦١
مسئولية القادة الإيجابية عن الانحلال [الطغيان] ٦٣
مسئولية القادة السلبية عن الانحلال ٦٩
[رفض الدعوات الإصلاحية وحربها] ... ...
طوائف أخرى من القادة ٧٧
مسئولية الاكليروس والشيوخ عن الانحلال ٨١
مسئولية رجال المال عن الإنحلال ٨٧

الباب الثالث

مسئولية الشعوب عن الانحلال

الشعوب المغلوبة على أمرها ٩٨
تكييف مسئولية الشعوب وأساسها ١٠١
مسئولية الشعوب السلبية عن الإنحلال [الاستخذاء] ١١٣
مسئولية الشعوب الإيجابية عن الإنحلال [محاربة الدعوات] ... ١٢٣
صراع الطبقات ١٣٨
النهاية . . ثم البداية ١٤٥

خاتمة

وأداء واجب

ظهر

للمؤلف

ثلاث عقبات فى الطريق إلى المجد

صدر فى سنة ٤٥

ديمقراطية جديدة

صدر فى سنة ٤٦

على هامش المفاوضات

صدر فى سنة ٤٧

نقد النظرية الماركسية

صدر فى سنة ٤٨

تحت الطبع

ترشيد النهضـــة

دراسة نقدية وتوجيهية لإنقلاب ٢٣ يوليو ونظرة فى المستقبل المصرى

***

أثر الفكرة الاسلامية فى الوطنية المصرية

دراسة تاريخية لأثر الفكرة الإسلامية فى نشأة الوطنية المصرية . من أقدم العصور حتى الآن . وأثر المقوم الدينى قديماً وحديثاً .

***

قصة الدستور المصرى

عرض . ونقد . وإصلاح

دراسة للحركة الدستورية فى مصر من عهد محمد على حتى دستور سنة ٢٣ ونقد لنقط الضعف فى هذه الحركة واقتراح لإصلاحها .

301.155:B21mA:c.1
البنا، جمال
مسئولية الاتحلال بين الشعوب والقادة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01010133

American University of Beirut

301.155
B21mA

General Library